

٧٥

عبد الله الكبير

المنتظرون الثلاثة



دار المعارف

كتابك ٧٥

رئيس التحرير أنيس منصور

عبد الله الكبير

المنتظرون الثلاثة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

أكثر المؤمنين بالأديان السماويّة الثلاثة : اليهوديّة والمسيحيّة والإسلام ، وكثيرون ممّن يَدِينون بغير هذه الأديان ، لكنّهم يؤمنون بالبَعْث والحَشْر والثّواب والعقاب فى الآخرة ، ينتظرون – قبل أن يقوم الناس لربّ العالمين – ظهورَ آياتٍ خاصّة ، وخروجَ منتظَر أو منتظَرين ، ويعتقدون أن هذه العلامات وهؤلاء المنتظَرين من دلائل اقتراب الساعة .

ونريد هنا أن نناقش هذه المعتقدات ، لنرى الصحيح منها والزائف ، فما يليق بنا – ونحن فى عصر العلم والعرفان – أن نقف جامدين أمام ما ورَّثنا الأجداد من عقائد قد يرفضها العقل ويُنكرها المنطق السليم .

وإنه لمن العُدوان على الحقّ ، ومن ظلمِنا أنفسَنا ، أن نحكِّم العاطفة فى العقيدة ، وأن نَحُولَ بين العقل والبحث حتى يهتدى إلى الصواب .

إن القرآن الكريم يحثُّنا فى غير آية على البحث والتفكير « أَفَلاَ

تَتَفَكَّرونَ[1] » ، « أَفَلاَ تَعْقِلُونَ[2] » ؟ وهو إذْ يحثّنا على ذلك يَنْعَى فى الوقت نفسه على الذين لا يفكّرون ولا يعقلون ، وعلى الكافرين والمشركين ، أنهم أهملوا عقولَهم ، وقَبِلُوا ما ورّثهم آباؤهم من حقّ وباطل بلا تدبّر ، و « قَالُوا بَلْ نَتَّبعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا »[3] ، و « قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنا »[4] ، « بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُهْتَدُونَ »[5] ؛ ولقد كانوا هم وآباؤهم فى ضلال مبين !

وجاءت السُّنَّة النبويّة الشريفة تؤكّد ما حثّ عليه القرآن الكريم من ضرورة البحث والتفكير ، حتى حَكَمَ جمهورُ المتكلّمين ببطلان إيمان المقلِّد ، إذا كان قادراً على البحث والاستدلال .

وفى حداثتى كنت أعتقد كما يعتقد العامة ، وأومن كما يؤمنون ، بأن يأجوج ومأجوج ، ودابّة الأرض ، والدَّجَّال ، والمسيح ، والمهدىّ ، وطلوعَ الشمس من مغربها — أمور لاشك فيها ، وأنها من النُّذُر بقُرب انتهاء الدنيا ، وفناء العالم ، وقيام الساعة . .

وكان جَمْهَرَةٌ مَن حولى — دارسين وغير دارسين — يقفون من هذه العلامات بين مُصدِّق ومُنْكِر . أمّا المصدِّق فيحتجّ بأحاديث يرويها دون

---

(١) سورة الأنعام : ٥٠ .

(٢) سورة البقرة : ٧٦ ، وآل عمران : ٦٥ ، والأنعام : ٣٢ ، والأعراف : ١٦٩ ، ويونس : ١٦ . . .

(٣) سورة لقمان : ٢١ .

(٤) سورة المائدة : ١٠٤ .

(٥) سورة الزخرف : ٢٢ .

أن يفكّر فى صحتها ؛ وأما المنكر فيحتج بأن عقله يرفض هذه المعتقدات ، ويزعم أن كتابَ الله لم يذكر أكثرَها صراحةً ولا رمزاً ، وأن الآيات القرآنية الكريمة التى أشارت إلى بعض هذه العلامات ، كوصف يأجوج ومأجوج ، ووصف دابّة الأرض ، ليس بها شىء ممّا تخيّلوه وبالغوا فيه ؛ ويقول المنكر أيضاً إن أكثر الأحاديث المنسوبة إلى النبىّ – ﷺ – فى هذه الأمور ، هى أحاديث مشكوك فى سَنَدها ومضمونها ، لأنها أحاديث أُحاديّة ، ولأنها مرويّة بالمعنى ، ولأن فيها تناقضًا كثيراً . . .

وقد وقفتُ بين المصدِّقين والمنكرين أفكر . . .

فكّرتُ ، وبحثت ، ونقّبت ، ووازنت ، وقارنت ، لأَبْنِيَ عقيدتى على العقل والدليل ، لا على الوراثة والتقليد ، وانتهيتُ إلى رأى أضعه اليوم بين يدى القارئ ، راجيًا أن يكون سديداً . وإنى لأُقرِّر سلفًا أنى أنزل عنه إن جانَبَ الحقَّ والسّداد ، وخالف العقل والرشاد . . .

«رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا» .

عبد الله الكبير

الساعة وأشراطها

قال الله – سبحانه وتعالى : « يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّى لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلا هُوَ ثَقُلَتْ فِى السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ لا تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللهِ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ »(١) .

وقال المفسّرون : إن معنى الساعة فى القرآن كلّه هو الوقت الذى يُصْعَقُ فيه العباد ، وفيه يُبْعَثون . وقد سُمِّيت ساعة لأنها تَفْجَأُ الناس فى ساعة ، فيموت الخلق كلّهم عند الصيحة الأولى التى ذكرها الله – تعالى – فى قوله : « إِنْ كَانَتْ إِلا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذا هُمْ خَامِدُونَ(٢) » ؛ ثم يُنفَخ فى الصُّور ، فيُبعَث مَن فى القبور ، قال – عزّ وجلّ : « مَا يَنْظُرُونَ إِلا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ . فَلا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ . وَنُفِخَ فِى الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ . قَالُوا يَاوَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا . هٰذَا ما وَعَدَ الرَّحْمٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ . إِنْ كَانَتْ إِلا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ . فَالْيَومَ لا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلا تُجْزَوْنَ إِلا مَا

(١) سورة الأعراف : ١٨٧

(٢) سورة يس : ٢٩

كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١) » .

والساعة بمعنى القيامة هى الساعة المُعَرَّفة بالألف واللام . قال الله – تعالى : « يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ »(٢) ، « أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً »(٣) ، « حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً »(٤) ، « وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلا كَلَمْحِ الْبَصَرِ(٥) » ، « وَإِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ »(٦) ، « وَأَنَّ السَّاعَةَ لا رَيْبَ فِيهَا »(٧) . « قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ »(٨) ، « بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا »(٩) ، « إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ »(١٠) ، « بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ »(١١) ، « وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ »(١٢) . . .

فهذه الساعة المعرَّفة بالألف واللام ، فى القرآن كلّه ، هى نهاية العالم ، وبَعْث الموتى وحَشْرهم .

أما الساعة مُنكَّرة ، أو معرَّفة بالإضافة ، لا بالألف واللام ، فهى

---

(١) سورة يس : ٤٩ – ٥٤

(٢) سورة الأعراف : ١٨٧ ، وسورة النازعات : ٤٢

(٣) سورة يوسف : ١٠٧

(٤) سورة الأنعام : ٣١

(٥) سورة النحل : ٧٧

(٦) سورة الحجر : ٨٥

(٧) سورة الكهف : ٢١

(٨) سورة الأنعام : ٤٠

(٩) سورة الفرقان : ١١

(١٠) سورة فصّلت : ٤٧

(١١) سورة القمر : ٤٦

(١٢) سورة الجاثية : ٢٧

الساعة الزمنيّة الدالّة على جزء من الوقت . قال الله – عزّ وجلّ : « لَقَدْ تَابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ »(١) ، فالساعة المعرفة بالإضافة هنا دالّة على وقت العسرة وزمنه . . .

وقال – تعالى : « فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ »(٢) ، « كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ »(٣) ، « قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلا تَسْتَقْدِمُونَ »(٤) ؛ فالساعة فى هذه الآيات نكِرةٌ تدلّ على جزء من الوقت ، كالساعة المعرّفة بالإضافة . . .

وقد جمعت الآية الخامسة والخمسون من سورة الرُّوم الساعة بمعنى القيامة والبَعْث والحشْر والحساب ، والساعةَ الزمنية بمعنى القليل من الوقت . قال الله – عزّ وجلّ : «وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ » .

* * *

والساعة بمعنى القيامة ممّا استأثر الله – تعالى – بعلمه ، ولم يُطلع على وقتها أحدًا من خلقه ، سواء أكان من الملائكة المقرّبين ، أم من الجنّ والشياطين ، أم من الإنس أنبياء ومرسلين :

---

(١) سورة التوبة : ١١٧ .

(٢) سورة الأعراف : ٣٤

(٣) سورة الأحقاف : ٣٥ .

(٤) سورة سبأ : ٣٠ .

« إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ »[1] . . .
« قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّى » . . .
« لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلا هُوَ »[2] . . .

تأمّل القَصْرَ بتقديم الجار والمجرور فى قوله تعالى : « إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ » . . .

وتأمّل القَصْر بإنما فى قوله تعالى : « إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّى » . . .

وتأمل القَصْر بالنّفى والاستثناء فى قوله تعالى : « لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلا هُوَ » . . .

إن هذا القصر بأساليبه المختلفة لا يدلّ إلا على تخصيص علم الساعة بالله وحده ، وقَصْرِه عليه ، لا شريك له . .

تباركتَ ربّنا وتعاليت !

عن ابن مسعود ، قال : لمّا كان ليلة أُسْرِىَ برسول الله — ﷺ — لَقِىَ إبراهيم وموسى وعيسى — عليهم الصلاة والسلام — فتذاكروا الساعة ، فبدءوا بإبراهيم فسألوه عنها ، فلم يكن عنده عِلْمٌ منها ، ثم سألوا موسى ، فلم يكن عنده عِلمٌ منها ، فرُدَّ الحديث إلى عيسى ، فقال : قد عُهِدَ إلىّ فيما دون وَجْبَتِها ، فأمّا وَجْبَتُها فلا يعلمها إلا الله ؛ فذكر خروج الدّجّال ، قال : فأنزل إليه فأقتله ، ثم ذكر خروج يأجوج ومأجوج ، ثم دعاءه بموتهم ، ثم دعاءه بإرسال المطر ، فيُلْقِى جِيَفَهم فى

---

(١) سورة فصلت : ٤٧ (٢) سورة الأعراف : ١٨٧

البحر ، ثم تُنْسَفُ الجبال ، وتُمَدّ الأرض مَدّ الأديم ، فعُهِدَ إلىّ إذا كان ذلك كانت الساعة من الناس كالحامل المُتِمّ ، لا يَدْرِى أهلُها متى تَفْجَؤُهم بولادتها ، ليلاً كان أو نهاراً . . .

فالساعة « ثَقُلَتْ فِى السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ لا تَأْتِيكُمْ إلا بَغْتَةً » ، أى على حين غفلة من غير توقع ولا انتظار . وقد تكرّر هذا المعنى فى القرآن الكريم ، فهى تفجأ الناس ، وتبغتهم وهم منهمكون فى أمور معايشهم ؛ فلَتَقُومَنّ الساعة وقد نَشَرَ الرجلان الثوبَ بينهما يتساومان فيه ، مالكه والذى يريد شراءه ، فلا يتم بينهما البيع من بغتة قيام الساعة ، فلا يتبايعانه ولا يطويانه ؛ ولتقومَنّ الساعة وقد رفع الرجل اللقمة إلى فمه . فلا يطعمها . . .

وإذا كانت الساعة تأتى بغتة فإن لها علامات تسبقها ، وتدلّ على قربها . قال الله – تبارك وتعالى – فى الآية الثامنة عشرة من سورة محمد : « فَهَلْ يَنظُرُونَ إلا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إذا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ » . والأشراط جمع شَرَط ، كسَبَب وأسباب ، هى العلامات والأمارات الدالّة على قُربها . . .

ومن أشراط الساعة التى ذكرتْها الأحاديث :

أن تلد الأَمَةُ ربَّها أو ربّتها . . .

وأن يتطاول فى البنيان الحُفاة العُراة رِعاءُ الشّاء . . .

وأن تكثر الزلازل والخسوف والفِتَن والهرج والقتل . .

وأن يتقارب الزمان . . .

وأن يفيض المال . . .

وأن تخرج دابَّةُ الأرض . . .

وأن يظهر الدجال . . .

وأن ينزل المسيح عيسى بن مريم ، عليه الصلاة والسلام . . .

وأن يظهر المهدىّ . . .

وأن تطلع الشمس من مغربها . . .

وغير ذلك ممّا ذكره الفقهاء والمفسرون .

وعن حُذَيْفة بن أسيد الغفارى أنه قال : اطّلع علينا النبىّ – ﷺ – ونحن نتذاكر ، فقال : ما تذاكرون ؟ قالوا : نذكر الساعة . قال : إنها لن تقوم حتى تَرَوْا قبلها عشرَ آيات ، فذكر : الدّخان ، والدّجّال ، والدّابّة ، وطلوع الشمس من مغربها ، ونزول عيسى بن مريم ، وخروج يأجوج ومأجوج ، وثلاثة خسوف : خسفاً بالمشرق ، وخسفاً بالمغرب ، وخسفًا بجزيرة العرب ، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى مَحْشَرهم . وفى رواية ثانية : نار تخرج من قعر عدن تسوق الناس إلى المَحْشر ، وفى رواية أخرى : ريح تُلْقِى الناس فى البحر . . .

وقد أخرج الترمذى من حديث أنس ، وأحمد من حديث أبى هريرة ، مرفوعاً : لا تقوم الساعة حتى يتقارب الزمان ، فتكون السنة

كالشهر ، والشهر كالجمعة ، والجمعة كاليوم ، ويكون اليوم كالساعة ، وتكون الساعة كاحتراق السَّعَفة . . . .

وعن أبى هريرة أن رسول الله - ﷺ - قال : لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان ، يكون بينهما مَقْتَلة عظيمة ، ودعوتهما واحدة ، وحتى يُبْعَثَ[1] دجّالون كذّابون ، وحتى يقبض العلم ، وتكثر الزلازل ، ويتقارب الزمان ، وتظهر الفتن ، ويكثر الهرج ، وهو القتل ، وحتى يكثر فيكم المال ، فيفيض ، حتى يُهِمَّ ربَّ المال مَن يقبل صدقته ، وحتى يعرضه فيقول الذى يعرضه عليه : لا أَرَبَ لى به ، وحتى يتطاول الناس فى البنيان ، وحتى يمرّ الرجل بقبر أخيه فيقول : ياليتنى مكانه ! وحتى تطلع الشمس من مغربها ، فإذا طلعت ، ورآها الناس ، فذلك حين لا ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل ، أو كسبت فى إيمانها خيرًا . . .

وروَى الترمذى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله - ﷺ : لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود ، فيقتلهم المسلمون ، حتى يختبئ اليهودىّ وراء الشجر والحجر ، فيقول الحجر والشجر ، يا مسلم ، يا عبد الله ، هذا يهودىّ خلفى ، فتعالَ اقتله ، إلا شجر الغَرْقد ، فهو شجر يهودىّ . وقال : « هٰذَا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الأُولَى . أَزِفَتِ الآزِفَةُ .

---

(١) المراد ببعثهم ظهورهم ، وليس البعث بمعنى الرسالة .

لَيس لَهَا مِنْ دُون اللهِ كَاشِفَةٌ »[١] .

وفى كتب السُّنّة أحاديث جمّة تذكر هذه العلامات بتقديم بعضها على بعض ، وبالزيادة تارة ، وبالنقص تارة أخرى .

وقد قال كثير من المفسرين : الأشراط منها صغار مضى أكثرها ، ومنها كبار ستأتى ، وهى التى تضمّنها حديث حُذيفة بن أسيد الغفارى .

وإذا تأمّلنا هذه العلامات رأينا أكثرها أموراً عادية ، ورأيناها قد حدثت قبل ظهور الإسلام ، وفى صدره ، وفى أزهى عصوره ، ورأينا أنها لاتزال تحدث حتى الآن . . .

● فمن أشراط الساعة أن تلد الأَمَةُ ربها . والربّ فى اللغة يُطلَق على المالك ، والسيّد ، والمدبر ، والمربّى ، والقيّم ، والمنعم ، ولا يطلق غير مضاف إلا على الله ، عزّ وجلّ . فإذا أُطلِق على غيره أضيف ، فيقال : ربّ البيت مثلا . ومعنى ولادة الأَمَةِ ربَّها كثرةُ السّرارى وأبناء السّبايا ، فتَلِدُ الأَمةُ لسيدها ولدًا ، فيكون لها كالمَوْلَى ، لأنه فى الحَسَب كأبيه ، وهذا يعنى أن السّبى يكثر ، والنعمة تفشو فى الناس ، فتكثر السرارى . وقد حدث هذا عَبْرَ القرون الماضية ، وانتشر فى أوائل الفتوح الإسلامية ، حتى إن مِن خلفاء بنى العباس مَن كانوا أبناء إماء ، كالخليفة المأمون والخليفة المعتصم . . .

● ورعاة الغنم وأهل البداوة الحُفَاة العُراة قد تطاولوا فى البنيان ،

---

(١) سورة النجم : ٥٦ – ٥٨

وصاروا فى عصور كثيرة ، قديماً وحديثًا ، أرباب ملايين ، وأصحاب قصور شامخة ، بل لقد صاروا رؤساء وملوكاً . وقد فسَّر بعض الفقهاء التطاول فى البنيان بأن كلّ من يبنى بيتاً يريد أن يكون ارتفاعه أعلى من ارتفاع بيت جاره ، وقالوا : قد يكون المعنى المباهاة فى الزينة والزخرف . وها نحن أولاء نرى أن البيوت – بعد أن كانت تشيد من طبقة أو طبقتين ، أصبحت تنطح السحاب ، فى المشارق والمغارب ، وأصبح البنيان يرتفع مختلف الطُّرُز متعدِّد الأنماط . وفى القاهرة منازل زادت طبقاتها على العشرين ، وفى شيكاغو بالولايات المتحدة الأمريكية ناطحة سحاب اسمها « سيرزرويك » يبلغ ارتفاعها خمسمائة وخمسين متراً ، أى ما يقارب ضعفى ارتفاع برج « إيفل » فى باريس !

● وهذه الزلازل والخسوف والفِتَن لا يكاد يمرّ عام دون أن تحدث فى أرجاء المعمور شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً . وقيل إن المراد بكثرتها شمولها ودوامُها . . .

● وهذا تقارب الزمن قد وضح أمره أبلغَ الوضوح ، لما كان يحدث قديماً فى سنة يحدث الآن فى أقل من شهر ، فصارت السنة كالشهر ، وصار الشهر كالأسبوع ، والأسبوع كاليوم ، فالمسافر الذى كان يقطع المسافة بين القاهرة والمدينة المنورة فى شهرين أو ثلاثة أشهر مثلاً ، أصبح اليومَ يقطعها فى ساعات معدودات . . .

وفى فتح البارى : تقارب الزمن معناه – والله أعلم – تقارب

أحوال أهله فى قلّة الدين ، حتى لا يكون فيهم من يأمر بمعروف وينهَى عن منكر ، لغَلَبة الفسق وظهور أهله . . .

● أما الهرج والقتل فيكفى أن نذكر أن الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ – ١٩٤٥) قد قتل فيها أكثر من خمسة عشر مليوناً ، ولم يحدث مثل ذلك من قبل . ومنذ وَضَعت تلك الحرب أوزارَها والحروبُ الصغيرة تثور فى غير مكان ، ويكثر فيها الهرج والقتل بسبب أدوات الحرب والتدمير الحديثة . .

● وأما اقتتال فئتين عظيمتين ، دعوتهما واحدة ، فحسبُنا أن نذكر المَقْتَلَة التى كانت بين علىّ ومعاوية فى صدر الإسلام ، والتى قُتِل فيها أكثر من سبعين ألفاً . وصفحات التاريخ حافلة بتفصيل مئات من أمثال هذه المقتلة وما هو أنكى منها . .

إذًا فولادة الأَمَةِ ربَّها ، والتطاول فى البنيان ، وكثرة الزلازل والخسوف والفتن والهرج والقتل ، وتقارب الزمن ، وفَيْض المال – كلّ هذه وأشباهها أمور طبيعيّة عاديّة ، وهى سُنَّة الله فى خلقه ، ومن عوامل التطوّر والتقدّم ، والعقل لا يرتضى أن تكون من أشراط الساعة . . .

ولست أُخفِى أنى أعتقد أن أكثر الأحاديث التى رُوِيَتْ فى هذه الشئون ، هى أحاديث ضعيفة ، أو موضوعة ؛ بل أكاد أجزم أنها إسرائيليات دسَّها أمثال كَعْب الأحبار ووهب بن منبّه من مَسْلَمَةِ بنى إسرائيل ؛ وأنها لا تخلو من المكايد المجوسية . . أما الأحاديث القطعية ،

أو الصحيحة الصريحة الشبيهة بالقطعية ، التى لا شُبهة فيها للدسائس الإسرائيلية والمكايد المجوسية ، فتخلو من هذه الدلالات ، وتمتاز بالأسلوب البليغ ، أسلوب الرسول الأعظم – ﷺ – فأسلوب الأحاديث المدسوسة سقيم ، ومعانيها مضطربة متناقضة . . .

وقد روَى الإمام أحمد فى مسنده أن النبىّ – ﷺ – قال : إذا سمعتم الحديث عنّى تعرفه قلوبكم ، وتلين له أشعاركم وأبشاركم ، وتَرون أنه منكم قريب ، فأنا أوْلاكم به ؛ وإذا سمعتم الحديث عنى تنكره قلوبُكم ، وتنفر منه أشعاركم وأبشاركم ، وتَرون أنه بعيد منكم ، فأنا أبعدكم عنه . وقال – ﷺ – فى حديث آخر : اعرضوا حديثى على كتاب الله ، فإن وافقه فهو منى ، وأنا قائله . . .

هذان الحديثان ، بالإضافة إلى الحديث الصحيح من قوله ، ﷺ : من كذب علىّ عامدًا متعمداً فليتبوأْ مقعده من النار ، تَقْطَع بأن الأحاديث فيها ما هو مكذوب موضوع . .

وأنا لا أشك فى أن من بين الأحاديث الموضوعة كثيراً ممّا رُوِىَ عن أشراط الساعة ، لأنها تخالف أسلوب أبلغ البلغاء – عليه الصلاة والسلام – ولأن العقل لا يقبلها ، ولأنها – قبل هذا وذاك – تخالف قول الله – عزّ وجلّ – فى أن الساعة « لا تَأْتِيكُمْ إلا بَغْتَةً » و « إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّى لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إلا هُوَ » . . .

القيـــامة

للقيامة فى القرآن الكريم أسماء كثيرة ، نذكر منها : يوم الحَشْر ، يوم الحساب ، يوم النُّشور ، يوم الفَزَع ، يوم الدِّين ، يوم التَّغابُن ، اليوم الآخِر ، الصاعقة ، الواقعة ، القارعة ، الزّلزلة ، البعث . ولكلّ اسم معنى ، ولكلّ صفة مقصد .

وللعلماء والمفسّرين أقوال كثيرة فى القيامة ، فهم يقولون إن هناك قيامة صُغْرَى ، وقيامةً وُسْطَى ، وقيامةً كُبْرَى . . .

وقد حَمَل بعض المفسّرين كثيراً من آيات القرآن الكريم فى القيامة على القيامة الصغرى ، وقالوا : إن قيامة كلّ فرد هى ساعة موته ، مستدلّين على ذلك بالحديث الشريف : إذا مات أحدكم فقد قامت قيامته !

وفسّر بعضهم القيامة الوسطى بأنها هلاك الجيل أو القرن ، أو زوال الدولة ، واستدلّوا على ذلك بما رواه البخارى عن حديث أبى هريرة : إذا وُسِّد الأمر إلى غير أهله فانتظروا الساعة . وإسناد الأمر إلى مَن لا يتسحقّه إيذان بانقضاء الدولة . . .

وفى صحيح مسلم : عن عائشة – رضى الله عنها – أن الأعراب كانوا يسألون رسول الله – ﷺ – عن الساعة ، فنظر إلى أحدث إنسان

منهم ، فقال : إن يعش هذا ، لم يدركه الهرم ، قامت عليكم ساعتكم ؛ وهذا الحديث أصرح من حديث أبى هريرة الذى ذكرناه آنفاً ، لأنه أضاف الساعة إليهم . وقيل إن هذا الجواب من أسلوب الحكيم ، فهو ينبّههم إلى ترك السؤال عن القيامة الكبرى ، التى لا يعلمها إلا الله ، وإلى الاهتمام بالسؤال عن الوقت الذى ينقرض فيه عصر السائلين ، فهو أَوْلَى بهم ، إذ يبعثهم هذا على ملازمة العمل الصالح قبل فَوْته . . .

أمّا القيامة الكبرى فليست أشراطها ولادة الأمة ربّها أو ربّتها ، وليس التطاول فى البنيان ، وفيض الأموال ، وكثرة الفِتَن والحروب والزلازل والخسوف ، فهذه كلها - كما سبق القول - أمور طبيعية عاديّة ، وقعت فى كل زمان ومكان ، ولاتزال تحدث أمام أعيننا فى أرجاء الأرض فى كل حين . . .

وأما العلامات الغريبة ، والدّلالات الخارقة غير المألوفة ، كيأجوج ومأجوج ، ودابّة الأرض ، والمنتظَرين الثلاثة : الدجّال ، والمسيح ، والمهدي ، ومطلع الشمس من مغربها ، وغيرها مما ذُكِر فى حديث حُذَيْفة الغِفارى ، فسنفرد لكلّ منها كلمة .

طلوع الشمس من مغربها

إن القرآن الكريم لم يذكر شيئا عن طلوع الشمس من مغربها ، لكن الأحاديث ذكَرت أن من أشراط الساعة طلوع الشمس من مغربها . وقد ذكرنا فى أول هذا البحث أحاديث كثيرة أشارت إلى ذلك ، ونذكر هنا بعض الأحاديث الأخرى :

قال أبو هريرة : قال رسول الله ، ﷺ : لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها ، فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا جميعاً ، وذلك حين لا ينفع نفسًا إيمانها . وقرأ الآية : « هَلْ يَنْظُرُونَ إلا أَنْ تأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْض آيَاتِ رَبِّكَ لا يَنْفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ »(1) .

وقد فسّروا قوله تعالى : « يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لا يَنْفَعُ نَفسا إِيمَانُهَا » قالوا : طلوع الشمس من مغربها !

وقال أبو ذَرٍّ — رضى الله عنه : قال رسول الله ، ﷺ : أتدرى أين تذهب الشمس إذا غربت ؟ قلت : لا . قال : إنها تنتهى فتسجد تحت العرش ، ثم تستأذن ، فيوشك أن يقال لها : ارجعى من حيث جئت ؛

---

(1) سورة الأنعام : ١٥٨

ذلك حين « لا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ ، أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً » .

ورُوِيَ عن حُذَيفة قال : سألت النبيّ – عليه الصلاة والسلام – عن آية طلوع الشمس من مغربها ، فقال : تطول تلك الليلة حتى تكون قَدْرَ ليلتين ، فيتنبّه الذين كانوا يصلّون فيها ، يعملون كما كانوا يعملون قبلها ، والنجوم لا ترى ، يرقدون ثم يقومون فيصلّون ، ثم يرقدون ثم يقومون ، يتطاول الليل ، فيفزع الناس ، فيصلّون ، فبينما هم ينتظرون طلوع الشمس من مشرقها إذا هي تطلع من مغربها ، فإذا رآها الناس آمنوا ، ولا ينفعهم إيمانهم !

ورُوِيَ عن عبد الله بن أبي أوْفَى قال : قال رسول الله ، ﷺ : ليأتِيَنَّ على الناس ليلة تعدِل ثلاثَ ليال من لياليكم هذه ، فإذا كان ذلك عرفها المتنفّلون ، يقوم أحدهم ، فيقرأ حزبه ، ثم ينام ، ثم يقوم ، فيقرأ حزبه ، ثم ينام ، فبينما هم كذلك صاح الناس بعضهم ببعض : ما هذا ؟ فيفزعون إلى المساجد ، فإذا هم بالشمس قد طلعت حتى إذا صارت في وسط السماء رجعت ، وطلعت من مغربها . قال فحينئذ لا ينفع نفساً إيمانها !

نحن لا ننكر أن الله على كل شيء قدير ، لكنّنا ننكر أن يُنسب إلى رسول الله ، ﷺ ، هذا التناقض والخلط ، ففي حديث حذيفة : تطول الليلة حتى تكون قدر ليلتين ، وبينما الناس ينتظرون طلوع الشمس

من مشرقها إذا هى تطلع من مغربها ! . . . وفى حديث عبد الله بن أبى أوْفَى : ليلة تعدل ثلاث ليال من لياليكم ، وبينما الناس ينتظرون طلوع الشمس إذا هى تطلع من مشرقها ، حتى إذا صارت فى وسط السماء ، رجعت وطلعت من مغربها !

إن الأحاديث الكثيرة المتواترة ، الصحيحة السَّند ، فى طلوع الشمس من مغربها ، وأن هذا من أشراط الساعة ، لا يطعن فى صحتها اختلاف الرواية ، فتقدير طول الليلة بليلتين أو بثلاث ، والقول بطلوع الشمس بدءاً من مغربها ، أو بطلوعها من مشرقها ، فإذا تكبّدت السماء رجعت ، وطلعت من مغربها – لا يطعن فى صحّة هذه الأحاديث ، إذ النتيجة المقصودة واحدة ، هى التعبير عن طول الليلة ، وعن طلوع الشمس من المغرب .

فإذا وقعت هذه الآية فذلك حين « لا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ » ، فالتوبة مقبولة من العبد ما لم يُغَرْغِر ، أو تخرج الشمس من مغربها !

الدابــة

قال الله تعالى فى الآية الثانية والثمانين من سورة النمل : « وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لا يُوقِنُونَ » .

وقد اختلف الصحابة والمفسّرون فى أمر هذه الدابّة اختلافًا عظيمًا ، وبالغوا فى وصفها مبالغة غير مقبولة . . . وقد نسبوا إلى النبىّ – ﷺ – أنه قال : إن طولها ستون ذراعاً ، لا يدركها طالب ، ولا يفوتها هارب ؛ كما نسبوا إليه – عليه الصلاة والسلام – أنه قال : لها أربع قوائم ، وزغب وريش وجناحان . . . وعن أبى هريرة : فيها من كل لون ، وما بين قرنيها فرسخ للراكب ! . . وقال ابن جريج فى وصفها : إن لها رأس ثور ، وعين خنزير ، وأذن فيل ، وقرن أيّل ، وعنق نعامة ، وصدر أسد ، ولون نمر ، وخاصرة بقرة (وفى رواية : خاصرة هرّة) ، وقوائم بعير (وفى رواية : خف بعير) ، بين كل مفصلين اثنتا عشرة ذراعاً بذراع آدم ، عليه السلام ! . . . وقال آخرون : إنها على خلقة الآدميين . وقيل إن وجهها وجه رجل ، وسائر خلقتها كخلقة الطير !

ورُوِىَ : لا تُخرِج إلا رأسَها ، ورأسُها يبلغ عَنان السماء ، أو يبلغ السحاب !

ونُسِب إلى ابن عباس أنه قال : إنها الثعبان الذى كان فى جوف الكعبة ، اختطفه العُقاب حين أرادت قريش إعادة بناء البيت الحرام ؛ وإن الطائر ألقاه فى الحجون ، فالتقمته الأرض ، فهو الدابّة التى تخرج تكلّم الناس !

وقال القرطبى : إنها فصيل ناقة صالح ، عليه السلام ، لقوله — ﷺ : تخرج ولها رُغاء ؛ والرُّغاء لا يكون إلا للإبل !

وكان جابر الحنفى — وهو شيعى يعتقد بالرَّجْعة — يقول : دابّة الأرض هى علىّ بن أبى طالب . ومراده أن عليًّا — رضى الله عنه — يرجع إلى الدنيا !

ورُوِىَ أنه يخرج من كلّ بلدٍ دابّةٌ ممّا هو مبثوث نوعها فى الأرض . وأنها ليست بدابّة واحدة . وعلى هذا الرأى تكون « دابّة » فى الآية اسم جنس . . .

هذا بعض ما قيل فى وصف الدابّة ، وهو عجيب . أما ما قيل فى خروجها فعجب عجاب !

روَى أبو هريرة عن النبى — ﷺ — أنّه سئل — من أين تخرج الدابّة ؟ فقال : يكون للدابّة ثلاث خرجات فى الدهر : تخرج أول خرجة بأقصى اليمن ، فيفشو ذكرها فى البادية ، ولا يدخل ذكرها القرية ، يعنى مكة ، ثم تتكمّن دهراً طويلا ، ثم تخرج خرجة ثانية قريباً من مكة ، فيفشو ذكرها فيها ؛ ثم يكون زمان ، فبينما الناس يوماً فى

أعظم المساجد حرمة عند الله ، وأحبّها إليه ، وأكرمها عليه – يعنى المسجد الحرام – لم يَرُعْهم إلا الدابّة ، وهى فى ناحية المسجد ، بين الركن الأسود ودار بنى مخزوم ، عن يمين الخارج من المسجد ، فترفضّ الناس عنها شتّى ، وتثبت لها عصابة من المسلمين عرّفوا أنهم لن يُعجِزوا الله هرباً فى الأرض ، فتنفُضُ عن رءوسهم التراب ، فتجلو عن وجوههم حتى تظل كأنها الكواكب الدرية ، ثم تذهب فى الأرض ، لا يدركها طالب ، ولا يعجزها هارب ، حتى إن الرجل ليعوذ منها بالصلاة ، فتأتيه من خلفه تقول : أىْ فلان ، الآن تصلّى ؟ فيلتفت إليها ، فتَسِمُه فى وجهه ، ثم تذهب ، فيتجاور الناس فى ديارهم ، ويصطحبون فى أسفارهم ، ويشتركون فى أموالهم ويُعرَف المؤمن من الكافر ، حتى إن الكافر يقول : يا مؤمن اقضنى حقّى ، ويقول المؤمن : يا كافر اقضنى حقّى !

وعن علىّ – رضى الله عنه – أنها تخرج ثلاثة أيام ، والناس ينظرون إليها ، فلا يخرج إلا ثلثها ! وعن الحسن – رضى الله عنه – لا يتمّ خروجها إلا بعد ثلاثة أيام !

* * *

أما موضع خروجها فقد نسبوا إلى النبىّ – ﷺ – أنها تخرج من أعظم المساجد حرمة على الله ، وهو المسجد الحرام . . .

وعن ابن عمر – رضى الله عنهما – أنه قال : تخرج الدابّة من صدع

فى الصفا ، تجرى جَرْىَ الفرس ثلاثة أيام ، وما خرج إلا ثلثها !

تخيَّلْ . . . واترك لخيالك العنان !

لقد قَدَّر العلماء أن الحصان يجرى كيلو متراً واحداً فى دقيقتين ، فإذا صدَّقنا ما نُسِب إلى ابن عمر من أن الدابّة تجرى جَرْىَ الفرس ثلاثة أيام – أى أكثر من ألفَىْ كيلو متر ، وكان ذلك ثلثها – كان طولها أكثر من ستة آلاف وأربعمائة كيلو متر ! وبهذا تضع قائمتيها الأماميتين فى بريطانيا ، وقائمتيها الخلفيتين فى مصر ، أو تضع قائمتيها الأماميتين فى سيبيريا ، وقائمتيها الخلفيتين فى صحراء إفريقية ، وتكون دول كثيرة فى آسيا وأوربا وإفريقية تحت بطنها !

ما أوسع هذا الخيال !

وقيل أيضاً فى مكان خروجها : ينصدع جبل الصفا ، فتخرج منه ليلة جَمْع ، والناس سائرون إلى منى .

وقيل : تخرج من أرض الطائف . . .

وروى الثعلبىّ عن ابن عمر أنه قال : تخرج الدابّة من الصفا ، تستقبل المغرب ، فتصرخ صرخة تنفذه ، ثم تستقبل المشرق ، ثم الشام ، ثم اليمن ، فتفعل مثل ذلك !

ونسبوا إلى سيّدنا رسول الله – عليه الصلاة والسلام – أنه قال : بينما عيسى بن مريم – عليه السلام – يطوف بالبيت ومعه المسلمون ، إذ تضطرب الأرض تحتهم تحرّك القنديل ، وينشق الصفا ممّا يلى

المَسْعَى ، فتخرج الدابّة من الصفا ، أول ما يبدو منها رأسها ، ملمّعا ذات وَبَر وريش ، ومعها عصا موسى وخاتم سليمان ، لا يدركها طالب ، ولا يفوتها هارب ، فتضرب المؤمن فى مسجده ، أو فيما بين عينيه ، بعصا موسى – عليه السلام – فتنكت نكتة بيضاء ، فتفشو تلك النكتة فى وجهه حتى يضيء لها وجهه كأنه كوكب دُرّيّ ، وتكتب بين عينيه : مؤمن ، وتنكت الكافر بخاتم سليمان – عليه السلام – فى أنفه ، فتفشو النكتة حتى يسودّ لها وجهه ، وتكتب بين عينيه : كافر ! ... ورُوِىَ : فتجلو وجه المؤمن بالعصا ، وتخطم أنف الكافر بالخاتم ، ثم تقول : يا فلان ، أنت من أهل الجنة ، ويا فلان ، أنت من أهل النار !

ورُوِىَ عن ابن عباس أنه قرَع الصفا بعصاه ، وهو مُحرِم وقال : إن الدابّة لتسمع قَرْع عصاى !

ورُوِىَ أنها تخرج من أجياد ، فعن أبى هريرة أن النبىّ – ﷺ – قال : بِئْسَ الشِّعْب شِعْب أجْياد – مرّتين أو ثلاثاً – قيل : ولِمَ ذلك يا رسول الله ؟ قال : لأنه تخرج منه الدابة ، فتصرخ ثلاث صرخات يسمعها مَن بين الخافقَيْن !

* * *

وإن نظرة عاجلة إلى هذا الذى قيل فى وصف الدابّة ، وفى مكان خروجها ، تكفى لكى ندرك أن الأحاديث المنسوبة إلى رسول الله – عليه

الصلاة والسلام – بعيدة عن مسحة البلاغة النبوية ، ناطقة بأنها أحاديث موضوعة مدسوسة . . .

ثم إن ما فى أقوال الصحابة من خلاف وتباين أبلغ دليل على أنها كلها من وضع الوضّاعين للأحاديث ، المختلقين الأساطير ، الذين وجدوا فى الكلام عن الدابّة مجالا واسعاً ، فاختلقوا ماشاءوا وشاء لهم خيالهم السقيم !

وقد قال الرازى : إنه لا دلالة فى الكتاب على شىء من هذه الأمور ، فإن صحّ الخبر فيه عن الرسول قُبِل ، وإلا لم يُلْتَفَت إليه . . .

* * *

أما قوله تعالى : « تُكَلِّمُهُمْ » فقالوا : إنها تقول لواحد : أنت مؤمن ، وتقول لآخر : أنت كافر ! . .

وقال الزمخشرى فى تفسيره : تكلمهم بالعربية بلسان ذلق ، فتقول : « أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لا يُوقِنُونَ » ، يعنى أن الناس لا يوقنون بخروجى ، لأن خروجها من الآيات ؛ وتقول : « أَلا لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ » . . .

وفتح همزة « أن » فى قوله تعالى : « أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لا يُوقِنُونَ » إنما هو على حذف الجارّ .

وعن السُّدّىّ : تكلمُهم ببطلان الأديان كلها سوى الإسلام . . .

وقال الزمخشرى : وقُرِئَ « تَكْلِمُهمْ » و « تَكْلُمُهمْ » من الكَلْم ،

وهو الجرح ، والمراد به الوسم بالعصا والخاتم ، ويجوز أن يكون « تُكَلِّمُهم » من الكَلْم أيضاً على معنى التكثير ، يقال : فلان مُكَلَّم أى مجرَّح ، ويجوز أن يُستدَلّ على أن المراد بالتكليم التجريح . .

والذى أومن به أن الدابّة آية من آيات ربّنا ، عزّ وجلّ ، وأن القرآن الكريم والأحاديث القطعية الصحيحة لم تصفها . . . والذى أرتضيه فى تفسير « تُكَلِّمُهُمْ » أنه من الكَلْم بمعنى الجرح ، وعلى هذا يكون معنى الآية الكريمة : وإذا وقع القول على الكافرين والمكذبين أخرجنا لهم دابّة من الأرض تجرحهم ، لأنهم كانوا لا يؤمنون .

لقد قال الله – عزّ وجلّ – فى آل فرعون : « فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالجَـــرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ [1] » ، وقال فى أصحاب الفيل : « وَأَرسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ » [2] ، فما يمنع أن تكون الدابّة من جنس الحشرات والحيوانات الموجودة الآن ، وأنها تكثر وتهجم على الناس – على ضعفها وضآلتها – فتصيبهم بالأذى ، ويعجزون عن مقاومتها ، مع ما أُوتوه من علم وحيلة . ويكون هذا آية من آيات الله التى لا تحصى ؟ !

---

(١) سورة الأعراف : ١٣٣

(٢) سورة الفيل : ٣

يأجوج ومأجوج

قال الله – عزّ وجلّ : « وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِى الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِنْهُ ذِكْراً . إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِى الأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا . فَأَتْبَعَ سَبَبًا . حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ[1] وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْماً قُلْنَا يَاذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً . قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْراً . وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْراً . ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً . حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ[2] وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْراً . كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْراً . ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً ، حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ[3] وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْماً لاَ

(١) عين حمئة (وفى قراءة : حامية) : أى ذات حمأة ، والحمأة الطين الأسود – والمراد عين بها ماء مائل للكدرة والعكارة ، وذلك حين بلغ ذو القرنين الشاطئ الغربى لآسيا الصغرى ، ورأى الشمس تغرب فى بحر « إيجه » فى المنطقة المحصورة بين سواحل تركيا الغربية شرقاً واليونان غرباً ، وهى منطقة كثيرة الجزر والخلجان .

(٢) بلغ ذو القرنين مطلع الشمس فى رحلته الثانية شرقاً التى وصل فيها إلى حدود باكستان وأفغانستان الآن ، ليؤدب القبائل البدوية الجبلية التى كانت تغير على مملكته بين ما تغير عليه .

(٣) بين السّدّين فى ناحية الشام ، وقيل جبلان بين أرمينية وأذربيجان وقيل هذا المكان فى مقطع أرض الترك .

يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلا . قَالُوا يَاذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ فَهَل نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا . قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْماً . آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ(١) حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ(٢) قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَاراً قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً(٣) . فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْباً . قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا . وَتَرَكْنَا بَعْضَهمْ يَوْمَئِذٍ يمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمعْنَاهُمْ جَمْعًا »(٤) .

وقال – سبحانه وتعالى : « حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ . وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَاوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ »(٥) .

وفى حديث زينب بنت جحش – رضِيَ الله عنها – أن النبى – ﷺ – بات عندها ، ثم استيقظ فزعاً محمرّ الوجه يقول : لا إله إلا الله . ويلٌ للعرب من شرّ قد اقترب ! فُتِحَ اليوم من رَدْم يأجوج ومأجوج

(١) زبر الحديد : قطعه الضخمة .

(٢) الصدفين هما جانبا الجبلين اللذين يفصل بينهما الممر الذى سده ذو القرنين .

(٣) قِطرًا : أى نحاساً مذاباً .

(٤) سورة الكهف . ٨٣ – ٩٨

(٥) سورة الأنبياء : ٩٦ ، ٩٧ .

مثلُ هذه (وحلّق بأصبعيه الإبهام والسبابة) ، قالت : يا رسول الله ، أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال : نعم ، إذا كثُر الخَبَث .

والخَبَث هو الكبائر التى جاءت الأديان بتحريمها ، كالزّنى والسرقة والقتل . . ممّا نراه الآن قد عمّ أرجاء العالم ، وصار الناس يقترفونه بلا وازع ولا رادع .

وقوله تعالى : « وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِى الْقَرْنَيْنِ » يعنى بالسائلين اليهود ، أو المشركين بتوجيه من اليهود . يقال إن اليهود أَوْعَزُوا إلى مشركى مكة أن يسألوا النبىّ – ﷺ – عن أشياء ، منها : الروح ، وقصّة أهل الكهف ، وقصّة ذى القرنين . ولم يكن هؤلاء أو أولئك يطلبون بسؤالهم الفهم والمعرفة ، وإنما ظنّ اليهود أنهم بهذه الأسئلة يحرجون الرسول الكريم ، ويكيدون له ، ويظهرونه فى مظهر الذى يجهل ما يعلمون . فردّ الله كيدَهم فى نحورهم ، وأوحى إلى رسوله ما أفحمهم ، وأنزل عليه من القرآن ما يحكى سؤالهم ، ويجيب عنه ، ويبيّن إيمان ذى القرنين ، وعقيدته السليمة ، وعدله وشجاعته ، دون أن يبيّن زمانه ومكانه ، وتركهم فى ضلالهم يعمهون . . .

* * *

ولقب «ذى القرنين» أُطْلِقَ على كثيرين ، منهم المنذر الأكبر ، وتُبّع الأقرن ، والإسكندر المقدونى . وقيل إن ذا القرنين هو أبو كرب شمر بن عبير بن أفريقش الحميرى ، فإنه بلغ ملكه مشارق الأرض

ومغاربها ! قال أبو الريحان : ويشبه أن يكون هذا القول أقرب ، لأن الأذواء كانوا من اليمن ، وهم الذين لا تخلو أساميهم من ذى كذا ، كذى نواس ، وذى رُعَيْن ، وذى النون . وهذا اللقب يدلّ على عظيم السطوة ، فالقرنان كناية عن السلطان . . .

ويقول المفسّرون القدماء إن ذا القرنين المقصود فى القرآن هو الإسكندر المقدونى ، فإن المنذر الأكبر ، وتُبّعا الأقرن ، وغيرهما ممّن أطلق عليهم هذا اللقب ، لم تكن لهم فتوح بلغت مطلع الشمس ومغربها ؛ أما الإسكندر الأكبر (٣٥٦-٣٢٣ق . م) فقد أخضع الثورات التى قامت فى المدن الإغريقية بعد موت أبيه فيليبوس المقدونى ، وانتصر على الإمبراطورية الفارسية ، وتوغّل فى فتوحه حتى الهند ، فاجتاح البنجاب ، وفتح مصر ، وأسس مدينة الإسكندرية وهو فى طريقه إلى معبد الوَحْى بسيوة ، وأحرز فتوحاً لم يُحرز مثلها قائد مثله ، وإليه يعزَى فضلُ نشر الحضارة الإغريقية فى ربوع الشرق ، وإحداث تغييرات جوهرية فى مجرى التاريخ . . . ولهذا يكاد المفسّرون يُجمِعون على أن الإسكندر المقدونى ، الذى فتح أكثر العالم المعمور فى وقته ، هو ذو القرنين المذكور فى القرآن الكريم . . . وقالوا : إن الدنيا ملكها مؤمنان وكافران ، أما المؤمنان فهما : سليمان بن داود – عليهما السلام – والإسكندر ذو القرنين ؛ وأما الكافران فهما : نمرود وبختنصر !

وإذا كان المفسّرون القدماء قد أجمعوا على أن ذا القرنين المذكور فى

التنزيل العزيز هو الإسكندر المقدونى ، فإنهم قد اختلفوا فى صفته ؛ فقال الزمخشرى : قيل إنه كان عبدًا صالحًا ، ملّكه الله الأرض ، وأعطاه العلم والحكمة ، وألبسه الهيبة ، وسخّر له النور والظلمة ، فإذا سَرَى يهديه النور من أمامه ، وتحوطه الظلمة من ورائه ! . . . وهذا قول مردود ، ينقضه ويبطله أن الإسكندر كان وثنيًّا ، وأنه لما جاء إلى مصر قدَّم القرابين للآلهة المصرية !

وقال ابن كثير : إنه الإسكندر . . . ثم يُبْطِل قوله هذا بقوله : إنه كان فى زمن سيّدنا إبراهيم الخليل – عليه السلام – وإنه طاف معه بالبيت !

وذكر القرطبى أقوالا كثيرة ، منها أن ذا القرنين كان من أهل مصر !

وقال النيسابورى : هو الإسكندر ، إذ لو كان غيره لانتشر خبره ، ولم يَخْفَ مكانه !

وقال الرازى : لمّا ثبت بالقرآن أن ذا القرنين كان رجلاً مَلَك الأرض بالكلية ، أو ما يقرب منها ، وثبت من علم التاريخ أن مَن هذا شأنه ما كان إلا الإسكندر ، وجب القطع بأن ذا القرنين هو الإسكندر ابن فيليبوس . . . ثم قال : وفيه إشكال ، لأنه كان تلميذًا لأرسطو الحكيم ، وكان على مذهبه ، فتعظيم الله إياه يوجب الحكم بأن مذهب أرسطو حق وصدق ، وذلك مما لا سبيل إليه !

وقد قال النيسابورى ، عقب إيراده هذا الإشكال عن الرازى :

قلت ليس كل ما ذهب إليه الفلاسفة باطلا ، فلعله أخذ منها ما صفا وترك ما كَدَر !

وذكر الألوسى الأقوال التى قيلت فى الإسكندر ، ثم قال : لا يكاد يسلم فيها رأى . ومع هذا اختار أن الإسكندر المقدونى هو ذو القرنين ، وقال : إن تلمذته للفيلسوف أرسطو لا تمنع أنه كان عبدًا صالحاً . . .

وقيل غير ذلك كثير . . .

ورَووا عن النبىّ – ﷺ – أنه قال : سُمِّىَ ذا القرنين لأنه طاف قرنى الدنيا ، يعنى جانبيها : شرقيها وغربيها . . .

وقيل : كان نبيًّا . وقيل : هو مَلَك من الملائكة ! وعن عمر بن الخطّاب – رضِىَ الله عنه – أنه سمع رجلا ينادى آخر قائلا : ياذا القرنين ، فقال : اللّهم غفراً ! ما رضيتم أن تتسموا بأسماء الأنبياء ، حتى تسمَّيتم بأسماء الملائكة !

ورُوِىَ عن علىّ بن أبى طالب – رضِىَ الله عنه – أنه قال : سخِّر له السحاب ، ومُدَّت له الأسباب ، وبُسِط له النور ! . . . وسئل عنه مرة ، فقال : أحبَّ الله فأحبه . وسأله ابن الكواء ، ما ذو القرنين ؟ أمَلَك هو أم نبىّ ؟ فقال : ليس بملك ولا نبىّ ، ولكنه كان عبداً صالحاً . . . .

وعن وهب : سُمِّىَ ذا القرنين لأنه ملك الروم والفرس ، أو الروم والترك . . .

وقيل : كان له قرنان ، أى ضفيرتان . وهذا ما يرى فى تماثيله . . .

وقيل : انقرض فى وقته قرنان من الناس . وهذا ينفيه ويردّه أن الإسكندر المقدونى مات وسنّه ثلاث وثلاثون سنة !

هذا أهم ما قيل عن الإسكندر ذى القرنين ، الذى يزعمون أنه صاحب سدّ يأجوج ومأجوج . وهو – كما يتّضح لكلّ ذى بصيرة – رَجْم بالغيب ، وأحاديث موضوعة وأساطير مختلقة ، وأقوال متناقضة ؛ فلم يُعْرَف أن للإسكندر المقدونى فتوحاً فى المغرب ، ولم يُعرَف أنه كان مؤمنا بالله ، وأنه كان حاكماً عادلا ، ولم يذكر التاريخ أنه بنى سدًّا . . .

حقًّا إن الإسكندر الأكبر من أعظم القواد وأبرز الشخصيات فى التاريخ ، وأنه كان يلقب بذى القرنين ، لكنه ليس هو ذا القرنين الذى ذَكَر القرآن الكريم أنه بنى سدّ يأجوج ومأجوج .

ولقد رجّح بعض علماء هذا العصر ، وعلى رأسهم العلامة « أبو الكلام آزاد » أن ذا القرنين صاحب السدّ هو « قورش » الكبير ، أحد ملوك فارس المصلحين ، الذى وحّد دولتى بابل وآشور القويّتين ، فى منتصف القرن السادس قبل الميلاد ، وأسّس أول إمبراطورية فارسية ، وضمّ إلى دولته الموحدة بلاداً كثيرة فى الشرق والغرب ، وكان حاكماً عادلاً شجاعاً ، وبنى سدًّا عظيماً فى سلسلة جبال القوقاز ، بين بحر الخزر (قزوين) والبحر الأسود ، ليَحُول دون تسرّب القبائل الهمجية التى كانت فى السهول الشمالية . وقد ذَكَرت كتب التاريخ هذا السدّ ،

وأطلقت عليه اسم « الباب الحديدى » .

وفى سنة ١٩٧٣ احتفلت إيران احتفالاً عظيماً بذكرى مرور خمسة وعشرين قرناً على تأسيس أول إمبراطورية فارسية ، هى الإمبراطورية التى أقامها « قورش » .

بحث العلامة « أبو الكلام آزاد » قصة ذى القرنين وبناء السد بحثًا وافيًا مستفيضًا انتهى فيه إلى أن « قورش » هذا هو ذو القرنين صاحب سدّ يأجوج ومأجوج ، لأن ما عُرِف عن فتوحه وصفاته وإيمانه بالله الواحد الأحد لا يخالف صريح القرآن . . .

وقد استطاع هذا العلامة أن يرسم خريطة للمنطقة التى كان يأجوج ومأجوج ينحدرون منها ، والمكان الذى بنى فيه ذو القرنين السدّ ، وقال : « والحاصل أن المفسّرين لم يصلوا إلى نتيجة مقنعة فى بحثهم عن ذى القرنين . القدماء منهم لم يحاولوا التحقيق ، والمتأخّرون حاولوه ، ولكن كان نصيبهم الإخفاق . ولا عجب ! فالطريق الذى سلكوه كان خاطئاً . . . لقد صرّحت الآثار بأن السؤال عن ذى القرنين كان من قِبل اليهود : وجّهوه مباشرة إلى النبىّ – ﷺ – أو أوعزوا إلى قريشٍ فى توجيهه ، فكان لائقاً بالباحثين أن يرجعوا إلى أسفار اليهود ويقرءوها ، لعلّ فيها شيئاً يلقى الضوء على شخصية ذى القرنين . . . إنهم لو فعلوا لفازوا بالحقيقة » .

وقول الله تعالى : « إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ

سَبَباً . . . قُلْنَا يَاذَا الْقَرْنَيْنِ . . . قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ . . . قَالَ هٰذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّى . . .» يدلّ على عظيم مكانة ذى القرنين ، وعلى إيمانه بالله الواحد الذى لا شريك له .

والتوراة تذكر ذا القرنين ، وأنه هو الملك كورش أو قورش أو خورش . ففى سفر أشعياء : وإنى أقول فى حق كورش : إنه يتم مرضاتى كلها[1] . . . هكذا يقول الربّ فى شأن مسيحه كورش : أنا أخذت بيده اليمنى ، لأجل الأمم فى حوزته ، وأنزع القوّة من سواعد الملوك ، وأفتح له المصراعين ، والأبواب لا تغلق . . . أنا أسير قدّامك ، والهضاب أمهّد . أنا الرب إله إسرائيل الذى يدعوك باسمك لأجل عبدى يعقوب ومختارى . دعوتك باسمك ، لقّبتك وأنت لست تعرفنى[2] . . .

كان « قورش » على الدين الزرادتشى ، ومال إلى اليهودية ، ولهذا ساعد اليهود على تحررهم من العبودية ، وأنقذهم من أسر بختنصر ، المعروف فى التاريخ الإسرائيلى بالأسر البابلى ، وأعادهم إلى أرضهم ، وجدّد لهم عمارة أورشليم (بيت المقدس) ، فعدّوه البطل المنقذ ، وأضفوا عليه عبارات المدح ، وثناء الرب عليه ، ومخاطبته إياه .

قال العلامة «أبوالكلام آزاد» : « اطلعت على ما جاء فى أسفار اليهود ، وعلى ما كتبه مؤرّخو اليونان ، فرجح عندى أن ذا القرنين هو الملك الفارسى قورش . . . ثم لما تمكّنت بعد سنوات من مشاهدة آثار

---

(١) سفر أشعياء : ٤٤

(٢) سفر أشعياء : ٤٥

إيران القديمة ، ومن مطالعة مؤلفات علماء الآثار فيها ، زال الحجاب ، إذ ظهر كشف أثرى قضى على سائر الشكوك ، فتقرّر لدىّ بلا ريب أن المقصود بذى القرنين ليس إلا كورش نفسه ، فلا حاجة بعد ذلك أن نبحث عن غيره . . . إنه تمثال على القامة الإنسانية ، ظهر فيه كورش ، وعلى جانبيه جناحان كجناحى العقاب ، وعلى رأسه قرنان كقرنى الكبش ، فهذا التمثال يثبت بلا شكّ أن تصوّر ذى القرنين كان قد تولّد عند كورش ، ولذلك نجد التمثال وعلى رأسه قرنان ، أى أن التصوّر الذى خلقه ، أو أوجده ، اليهود للملك المنقذ لهم كورش كان قد شاع وعُرِف لدى كورش نفسه على أنه الملك ذو القرنين ، كما يتبين من التمثال ، سواء قلنا إنه صنع فى عهده ، أو فى عهد خلفائه » .

* * *

- أما يأجوج ومأجوج فلهم شأن فى القَصَص الإسرائيلى والقصص الإسلامي . وقد قال القدماء عنهم ما يدعو إلى العجب ، فأكثره خرافات وأساطير لا يرتضيها العقل السليم . . .

قالوا : إنهما قبيلتان من ولد يافث بن نوح ، عليه السلام . وقالوا إن يأجوج من الترك ، ومأجوج من الجبل والديلم . وقالوا : هم صنفان : صنف ضخم الجسم طويل مُفرِط فى الطّول ، وصنف قصير مفرط فى القصر ، لا يزيد فى الطول على الشبر ! وجعلوا لهم مخالب فى أظافيرهم ، وأنيابا حادّة كالسباع !

وليس فى القرآن الكريم ما يشير إلى هذه الصفات الشاذة ، وإنما اقتصر فى وصفهم على أنهم « مُفْسِدُونَ فِى الأَرْضِ » ، ولو كان فيهم شيء خارق شاذّ لذكره ونبّه إليه . وقد فُسِّر فسادهم فى الأرض بأنهم كانوا يأكلون الناس ، وأنهم كانوا يخرجون أيام الربيع فلا يتركون شيئاً أخضر إلا أكلوه ، ولا يابساً إلا احتملوه ، وأن الناس كانوا يلقَوْن منهم قتلاً وسبيًا وأذًى كثيراً . . . إلى آخر ما قيل من خيالات وأراجيف !

والأرجح أن يأجوج ومأجوج كانوا قوماً أولى قوة وأولى بأس شديد ، يشنّون الغارات على من حولهم ، ويغزونهم ، ويسلبونهم أموالهم ، ويجتاحون غلاّتهم وثمارهم ، ويقتلون رجالهم ، ويسبون نساءهم ، وهذا معنى أنهم « مُفْسِدُونَ فِى الأَرْضِ » . . .

يقول العلامة « أبو الكلام آزاد » : « لقد تضافرت الشواهد على أنهم لم يكونوا إلا قبائل همجية بدوية ، من السهول الشمالية الشرقية ، تدفّقت سيولها من قبل العصر التاريخى إلى القرن التاسع الميلادى نحو البلاد الغربية الجنوبية ؛ وقد سُمِّيت بأسماء مختلفة فى عصور مختلفة ، وعُرِف قسم منها فى الزمن المتأخر باسم « ميقر » أو « ميكر » فى أوربا ، وباسم « التتار » فى آسيا . . . ولا شك أن أصلاً لهؤلاء القوم كانوا قد انتشروا على سواحل البحر الأسود فى سنة ٦٠٠ قبل الميلاد ، وأغاروا على آسيا الغربية ، نازلين من جبال القوقاز . ولنا أن نجزم بأن هؤلاء هم

الذين شكَت الشعوب الجبلية غاراتهم إلى كورش ، فبنى السدّ الحديدىّ لمنعها » .

والموطن الأصلى لهؤلاء القبائل الهمجية هو البقعة الشمالية الشرقية من آسيا ، المعروفة الآن باسم « منغوليا » ، وقبائلها الرحالة « منغول » ، وتقول المصادر اليونانية إن أصل « منغول » هو « منكوك » أو « منجوك » ، والكلمة فى الحالين تقرب من النطق العبرى « ماكوك » ، ومن النطق اليونانى « ميكاك » . . ويأجوج ومأجوج ليستا عربيتين ، فهما تنطقان باليونانية « كاك » (Gag) و « ماكوك » (Magog) .

* * *

أما السد فقد حكى محمد بن جرير الطبرى فى تاريخه أن صاحب أذربيجان أيام فتحها وجّه إنساناً إليه من ناحية الخزر ، فشاهده ، ووصفه أنه بنيان رفيع وراء خندق عميق وثيق . . .

وذكر ابن خرداذبه فى كتاب « المسالك والممالك » أن الواثق بالله رأى فى المنام كأنه فتح هذا الرَّدْم ، فبعث إليه بعض أتباعه ليعاينوه ، فخرجوا من « باب الأبواب » حتى وصلوا إليه وشاهدوه ، فوصفوا أنه بناء من حديد مشدود بالنحاس المذاب ، وعليه باب مقفل . . . ثم إنهم لما حاولوا الرجوع أخرجهم الدليل على البقاع المحاذية لسمرقند .

قال أبو الريحان : مقتضى هذا أن موضعه فى الربع الشمالى الغربى من المعمورة . . .

وقد حدد العلامة « أبو الكلام آزاد » مكان السدّ بأنه فى البقعة الواقعة بين بحر الخزر والبحر الأسود ، فى ممرّ بسلسلة جبال القوقاز (جبال قفقاسيا) ؛ ومن هذا الممرّ كان المغيرون يهبطون من الشمال إلى الجنوب ، فبنى فيه « كورش » سدّه . وقد أكدت الكتابات الأرمينية هذا الرأى ، وسمّت السدّ باسم « بهاك غورانى » ، و« كابان غورانى » والمعنى واحد ، هو مضيق غورش ، أو ممرّ غورش . وغور هو اسم غورش أو قورش أو كورش فى اللغة الأرمينية . وبهذا حدّد العلامة « آزاد » مكان السدّ ، وبين المراد من يأجوج ومأجوج . وأنكر أن يكون السدّ هو سدّ الصين ، لأنّ صفاته لا تتفق وصفات سدّ ذى القرنين .

* * *

وخلاصة القول أن يأجوج ومأجوج شعوب همجية ، كانت تسكن السهول الشمالية الشرقية فى آسيا ، وأنهم كانوا يتدفّقون إلى الجنوب ، ويفسدون فى الأرض ، ويؤذون الناس ، فبنى قورش السدّ ، ليمنع هذا التدفق ، ويحُول دون هجومهم على جيرانهم ؛ وهو سدّ من الحديد والنحاس المذاب ، أقامه فى مضيق بين جبلين . وهذا معقول مقبول ، فمن قبل قورش بنى المصريون القدماء الأهرام ، وفى هذا العصر بنى المصريون المعاصرون السدّ العالى ، كما أقيمت فى أنحاء العالم سدود وأبراج هى من العجائب . « فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى[1] » ، ودنا يوم

---

(١) سورة الكهف : ٩٨ .

القيامة ، جعل الله هذا السد دكًّا مدكوكاً مسوًّى بالأرض ، «وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ»[١] ، قال تعالى : « وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا »[٢] . هذا إذا كان للسدّ أثر باق إلى اليوم .

أما ما وصف به المفسرون يأجوج ومأجوج من صفات خَلْقية شاذّة لا يقبلها العقل ، فلا محلّ للأخذ بها وتصديقها ، مادام القرآن الكريم والسّنة النبوية الصحيحة لم يذكراه ، أو يشيرا إليه .

وأما قوله تعالى : «وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ» فقد قال المفسّرون : إن يأجوج ومأجوج حين يخرجون من وراء السدّ يموجون مزدحمين فى البلاد . . . يأتون البحر فيشربون ماءه ، ويأكلون دوابّه ، ثم يأكلون الشجر ، ويأكلون لحوم الناس ، ولا يقدرون أن يأتوا مكّة والمدينة وبيت المقدس . . . ثم يبعث الله عليهم حيوانات ، فتدخل فى آذانهم ، فيموتون !

وعن أبى هريرة أن رسول الله – ﷺ – قال : إن يأجوج ومأجوج ليحفرون السدّ كل يوم حتى إذا كانوا يَرَوْن شعاع الشمس قال الذى عليهم : ارجعوا ، فستحفرونه غداً ، فيعودون إليه ، فإذا هو كأشدّ ما كان ؛ حتى إذا بلغت مدّتهم ، وأراد الله أن يبعثهم على الناس حفروا ، حتى إذا كانوا يرَوْن شعاع الشمس قال الذى عليهم : ارجعوا ،

---

(١) سورة فاطر : ١٧

(٢) سورة طه : ١٠٥

فستحفرونه غداً ، إن شاء الله ؛ ويستثنى[١] ؛ فيعودون إليه ، وهو كهيئته حين تركوه ؛ فيحفرون ، ويخرجون على الناس ، فينشّفون الماء . ويتحصّن الناس منهم فى حصونهم ، فيرمون بسهامهم إلى السماء . فيبعث الله عليهم نَغَفاً[٢] فى أعناقهم فيقتلهم بها . وقال رسول الله — ﷺ : والذى نفس محمد بيده ، إن دوابّ الأرض لتسمن وتَشْكَر شَكَراً من لحومهم ودمائهم ؛ أى تسمن وتمتلئ شحماً . . .

وبعد ذلك ينفخ فى الصور ، وتكون القيامة . . .

ونحن نرجح أن يأجوج ومأجوج هم شعوب إحدى الدول الكبرى الآن ، وأن هذه الدولة قد تخوض حرباً مقبلة تُستخدم فيها القنابل الذرية والهيدروجينية وقنابل النيترون ، فتحرق الأخضر واليابس . وتقضى على الناس ، وعلى كل حضارة وعمران ، ويكون حينئذ قتل وتخريب وإفساد لا يخطر ببال ، ولا يتصوّره خيال !

---

(١) يستثنى : يقول : إن شاء الله

(٢) نَغَفاً : نوع من الدود .

الدجـال

ما أكثر الأحاديث والأقاويل والأساطير التى تكلّمت عن المسيخ الدجّال ، وعن زمان خروجه ومكانه ، وعن مهمّته ودعوته ، وناره وجنّته !

وقد نُسِبَت إلى رسول الله – ﷺ – وإلى بعض صحابته ، أحاديث كثيرة عن الدجّال . وإنى لأعتقد أن هذه الأحاديث موضوعة ، مهما قيل فى سَنَدها ، لأنها فى متنها وأسلوبها بعيدة غاية البُعْد عن أحاديث النبىّ ، خير من نطق فأفصح ، وأبانَ فأوضح . . . وإلا فأين هذا العاقل الذى يصدّق أن سيدّنا محمّد بن عبد الله ، الذى ألقت إليه البلاغة أزمّتها ، والذى أوْحَى الله إليه القرآن الكريم المعجز ، الذى تَحَدَّى به المشركين قائلا : « فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ »[1] . وقال : « فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ »[2] ، والذى دعا إلى التوحيد ، وأعلن أن لا إله إلا الله ، وتلا على الناس قول العزيز الحكيم : « قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ . اللهُ الصَّمَدُ . لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ . وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ . »[3] . وتلا قوله تعالى : « أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ »[4] ، وقوله عزّ

(١) سورة هود : ١٣
(٢) سورة البقرة : ٢٣
(٣) سورة الإخلاص
(٤) سورة النحل : ١٧

وجلّ : « الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ ولَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِى الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا . وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلا يَمْلِكُونَ لأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا وَلا يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلا حَيَاةً وَلا نُشُورًا »[١] – أين هذا العاقل الذى يصدّق أن سيدنا محمد بن عبد الله هذا ، الذى عرف ربّه حقّ المعرفة ، وعرف أن « لَيْس كَمِثْلِهِ شَىْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ »[٢] ، لمّا أراد أن يميّز الله العلىّ القدير من الأعور الكذّاب عَجَزَ فقال : إن الدجّال أعْوَر ، وإن الله ليس بأعور ؟ !

تكاد الأحاديث – مهما يكن رأينا فى صحتها أو وضعها – تُجْمِع على أن كلّ نبىّ قد أنذر أُمّتَه الدجّال ، وأن الرسول الكريم فَضَلَهم ، واختُصّ دونَهم بكثير من أخباره ، وأنه يهتمّ بأمره أشدّ الاهتمام ، ولهذا يؤكّد كلامه بغير أداة من أدوات التوكيد ، وهو يفرق بين الحقّ والباطل ، فيقول إن الدجّال أعور ، وإن الله ليس بأعور !

أفما كان الرسول يستطيع ببلاغته ، أو بآيات القرآن الكريم ، أن يميز الله مَن الدجّال بغير هذا القول الذى يجعل الله كائناً ماديًّا ذا وجه ويدَيْن وعينَيْن ، ويستحضر فى الذهن هيئة لله تعالى لا تتّفق وما ينبغى له سبحانه من كمال ؟ !

يا لَحُمْقِ مَن يصدّق هذا ! ويا لَبلاهة من يعتقد أن حديثاً كهذا

(١) سورة الفرقان : ٢ ، ٣ .

(٢) سورة الشورى : ١١ .

يصدر عن مدينة العلم ، الذى لا ينطق عن الهوى !

ما أكثر الأحاديثَ التى بثّها فى الدين زنادقةُ الفرس واليهود ! وما أكثر المسلمين الذين اغترّوا بهذه الأحاديث المدسوسة الموضوعة ، لأنهم نظروا إليها من حيث أسانيدها ، ولم يهتمّوا بمتنها وأسلوبها !

والأحاديث المدسوسة مُسَلَّم بها عند الفقهاء ، وربّما دُسَّ بعضها فى عهد الرسول – عليه الصلاة والسلام – حتى قال : مَن كَذَبَ علىّ عامدًا متعمدًا فليتّبوأ مقعده من النار ؛ وهذا يؤيد ما يذهب إليه المحدّثون . . .

رَوَوْا أن رسول الله – ﷺ – قد تعوّذ من الدجّال ، وأنه كان يقول فى دعائه : اللّهمّ إنى أعوذ بك من عذاب القبر ، وأعوذ بك من فتنة المسيخ الدجّال ، وأعوذ بك من فتنة المَحْيا وفتنة الممات . . .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ، ﷺ : أرانى ليلةً عند الكعبة ، فرأيت رجلاً آدَمَ كأحسن ما أنت راءٍ من أُدْم الرجال ، تضرب لِمَّته بين منكبَيْه ، قد رَجَّلَها (وفى رواية ثانية : قد رجّلها فهى تقطر ماء ؛ وفى رواية ثالثة : رَجْل الشعر يقطر رأسُه ماء ؛ وفى روايات أخرى : يسكب رأسه ، أو ينطف رأسه ماء ، أو يهراق رأسه ماء !) واضعا يدَيْه على منكبَيْ رَجُلين (وفى رواية : على عاتقَيْ رجلين) ، وهو بينهما يطوف بالبيت . فسألت : مَن هذا ؟ فقالوا : هذا المسيح عيسى بن مريم . . . ورأيت وراءه رجلا جعداً قَطَطاً (وفى

رواية : ثم إذا أنا برجل جَعْد قَطَط ، وفى رواية أخرى : ورأيت وراءه رجلاً أحمر جسيماً ، جعد الشعر) ، أعور العين اليمنى ، كأشبه ما رأيت من الناس بابن قَطَن ، واضعاً يديه على عاتِقَىْ رجلين يطوف بالبيت ، فقلت : مَن هذا ؟ قالوا : هذا المسيخ الدجال !

تأمل هذا الحديث ، واحكم . . .

إن هذا الحديث – إن صحّ – قد قيل بعد الإسراء ، وفى المعراج رأى الرسول – ﷺ – المسيح عيسى بن مريم فى السماء ، فكيف لم يعرفه وهو يطوف بالبيت ؟ ! . . .

النبىّ – ﷺ – لا يعرف المسيح ، فيسأل عنه مَن معه من الصحابة ، فيعرفون ويجيبون الرسول : هذا هو المسيح عيسى بن مريم ! من أين عرف الصحابة المسيح فى حين لم يعرفه النبىّ ؟ ! وكيف يعرف الصحابة الدجّال ولا يعرفه النبي ؟ وكيف رأى النبىّ الدجّال يطوف بالبيت ، والأحاديثُ تُجمع على أنّ الدجّال لا يدخل مكّة والمدينة وبيت المقدس ؟ !

وعن ابن عمر أيضاً قال : ذَكَر رسولُ الله – عليه الصلاة والسلام – يوماً بين ظهرانَىِ الناس المسيخ الدجّال ، فقال : إن الله – تبارك وتعالى – ليس بأعور . . . ألا إن المسيخ الدجّال أعور العين اليمنى ، كأن عينَه عنبةٌ طافية !

وعن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ، ﷺ : إنى

أنذركموه . وما من نبىّ إلا قد أنذر أمّته الأعور الكذّاب ، ولكنى أقول لكم فيه قولاً لم يَقُلْه نبىّ لقومه . ألا إنه أعور ، وإن ربّكم ليس بأعور ، مكتوب بين عينيه ك ا ف ر . . .

وعن أنس أيضاً قال : قال رسول الله ، ﷺ : الدجّال ممسوح العين اليمنى ، مكتوب بين عينيه كافر ، يقرؤها كل مسلم . . .

وعن حُذَيفة قال : قال رسول الله ، ﷺ : الدجّال أعور العين اليسرى ، جُفال الشعر ، معه جنّة ونار ، فناره جنّة ، وجنّته نار ، فمن أدْرَكَه منكم فليقعْ فى التى يرى أنها نار ، فإنها جنّة . . .

وعن حذيفة أيضاً قال : قال رسول الله ، ﷺ : لأنا أعْلَم بما مع الدجال منه ، فمعه نهران يجريان ، أحدهما رأىَ العين ماء أبيض ، والآخر رأىَ العين نارٌ تتأجّج ، فمن أدركه فلْيأْتِ النهر الذى يراه ناراً ، وليغمض ، ثم ليطأطئْ فيشرب ، فإنه ماء بارد ؛ وإن الدجّال ممسوح العين ، عليها ظفرة غليظة ، مكتوب بين عينيه «كافر» ، يقرؤها كل مؤمن كاتب وغير كاتب !

تأمّل واحكم .

فى الحديث المنسوب إلى ابن عمر أن الدجّال أعور العين اليمنى ، كأن عينَه عنبةٌ طافية . . .

وفى الحديث المنسوب إلى أنس أنه ممسوح العين اليمنى . . .

وفى الحديث المنسوب إلى حذيفة أنه أعور العين اليسرى ، وممسوح العين . . .

وفى حديث آخر : أن عينه ليست بناتئة ولا جحراء[1] .

فأى هذه الأحاديث صحيح ؟ وأيّها نصدّق ؟ !

وعن أبى أمامة الباهلىّ قال : خطبَنا رسولُ الله – عليه الصلاة والسلام – فكان أكثر خطبته عن الدجّال ، وكان من قوله :

« إنّه لم تكن فتنة فى الأرض ، منذ ذرأ الله ذريّة آدم ، أعظم من فتنة الدجال . وإن الله لم يبعث نبيًّا إلا حذّر أُمّتَه من الدجّال . وأنا آخر الأنبياء ، وأنتم آخر الأمم ، وهو خارج فيكم لا محالة ، فإن يخرج وأنا بين ظهرانيْكم فأنا حجيجه ، وإن يخرج من بعدى فكلٌّ حجيجُ نفسه ، والله خليفتى على كلّ مسلم . . .

« وإنه يخرج من خلّة بين الشام والعراق ، فيعيث يميناً وشمالاً . .

« يا عباد الله ، اثبتوا . . . وإنى سأصفه لكم صفةً لم يصفها إيّاه نبىّ من قبلى . . . إنه يبدأ فيقول : إنى نبىّ . ولا نبىَّ بَعْدِى . ثم يُثَنّى فيقول : أنا ربّكم . ولا ترون ربّكم حتى تموتوا . وإنه أعور . وإن ربكم – عزّ وجلّ – ليس بأعور . وإنه مكتوب بين عينيه «كافر» يقرؤها كل مؤمن كاتب وغير كاتب . . .

« ومن فتنته أن معه جنّة وناراً ، فناره جنّة ، وجنّته نار ، فمن ابتُلِىَ

---

(١) جحراء : غائرة منجحرة ، ضيقة لها غمَص ورمص ، ويروى خجراء .

بناره فليستغث بالله ، وليقرأ فواتح سورة الكهف ، فتكون عليه برداً وسلاماً ، كما كانت النار على إبراهيم . . .

« ومن فتنته أن يقول لأعرابيّ : أرأيت إن بعثتُ لك أباك وأمّك أتشهد أنى ربّك ؟ فيقول : نعم . فيتمثّل له شيطانان فى صورة أبيه وأمّه ، فيقولان : يا بنىّ ، اتبعه ، فإنه ربّك !

« ومن فتنته أن يمرّ بالحىّ يكذّبونه ، فلا تبقَى لهم سائمة إلا هلكت ، وأن يمرّ بالحىّ يصدّقونه : فيأمر السماء أن تمطر فتمطر ، ويأمر الأرض القفر أن تنبت فتنبت ، حتى تَرُوح عليهم مواشيهم أسمن ما كانت ، وأحفل ضروعاً . . .

« وليس من بلد إلا يَطَؤه الدجّال ، ويظهر عليه ، غير مكّة والمدينة ، فليس من نقابهما نقب إلا عليه الملائكة حافّين بالسيوف يحرسونهما . . . فينزل عند منقطع السبخة التى بقرب المدينة ، فترجف المدينة بأهلها ثلاث رجفات ، فلا يبقَى كافر ولا كافرة ، ولا منافق ولا منافقة إلا خرج إليه ، فتَنَقَّى المدينة من الخَبَث ، كما يُنَقِّى الكِيرُ خَبَثَ الحديد . . .

« ويخرج إليه يومئذ رجل هو خير الرجال ، أو من خير الرجال ، فيقول له : أشهد أنك الدجّال . فيقول الدجّال : أرأيتم إن قتلتُ هذا الرجل ، ثم أحييته ، هل تشكّون فى الأمر ؟ فيقولون : لا . فيقتله ، وينشره بالمنشار ، ثم يُلقِى جثّته شطرين ، ويقول : انظروا إلى عبدى ،

فإنى أبعثه الآن حيًّا ، ثم يزعم أنّ له ربًّا غيرى ! . . .فيحييه الله تعالى . فيقول له الدجّال : مَن ربُّك ؟ فيقول الرجل : ربّى الله ، وأنت الدجّال عدوّ الله . واللهِ ما كنتُ أشدَّ بصيرةً بك منى اليوم ! . . .

« فقالت أم شريك : يا رسول الله ، فأين العرب يومئذ ؟ قال : هم قليل ، وجُلُّهم ببيت المقدس ، وإمامُهم رجل صالح . فبينما الإمام قد تقدّم ليصلّى الصبح ، إذ نزل عليهم عيسى بن مريم . فرجع الإمام القهْقَرى ، ليقدّم عيسى يصلّى ، فيضع عيسى – عليه الصلاة والسلام – يده بين كتفيه ، ويقول له : تقدَّمْ فصلِّ ، فإنها لك أقيمت . فيصلّى بهم إمامهم ، فإذا انصرف قال عيسى : افتحوا الباب . فيُفتح ، ووراءه الدجّال ، ومعه سبعون ألف يهودىّ ، كلهم ذوو سيوف . فينظر المسيح إلى الدجّال ، فيذوب كما يذوب الملح فى الماء ، وينطلق هارباً ، فيقول عيسى : إن لى فيك ضربة لن تسبقنى بها . فيدركه عند الباب الشرقى فيقتله ! » . . .

ولعل من أعجب الروايات عن الدجّال ما أخرجه نعيم بن حماد عن طريق كعب الأحبار . أن الدجّال تلده أمُّه فى قوص ، من أرض مصر ، وأن بين مولده ومخرجه ثلاثين سنة . . . ولو صحَّ هذا لَلَعَنَ الرسولُ مصر . ولقال فيها كما قال فى شِعْب أجياد : بئس الشِّعْب شعب أجياد – مرّتين أو ثلاثاً – فلمّا سُئل : لماذا ؟ قال : لأن الدابّة تخرج منه ! ولكن الرسول أثنى على مصر . وأوصى صحابته بأهلها . . .

وروى نعيم عن كعب الأحبار أيضاً رواية تثير السخرية ، قال : يتوجّه الدجّال فينزل عند باب دمشق ، ثم يُلْتَمَس فلا يُقْدَر عليه ، ثم يُرَى عند المياه التي عند نهر الكسرة[1] ، ثم يُطلَب فلا يُدرَى أين توجّه ، ثم يظهر بالمشرق ، فيعطَى الخلافة ، ثم يُظْهِر السِّحر ، ثم يدَّعى النبوّة ، فتتفرّق الناس عنه ، فيأتى النهر فيأمره أن يسيل فيسيل ، ثم يأمره أن يرجع فيرجع ، ثم يأمره أن يَيْبَس فيَيْبَس . . . ويأمر جبل الطور وجبل الريّان[2] أن ينتطحا فينتطحا ، ويأمر الريح أن تثير سحاباً من البحر ، فتمطر الأرض . . . ويخوض البحر فى كلّ يوم ثلاث خوضات ، فلا يبلغ حقوه ! وإحدى يديه أطول من الأخرى ، فيمدّ الطويلة فى البحر ، فتبلغ قعره ، فيخرج من الحيتان ما يريد ! . . .

ما أوسع خيالك يا كعب الأحبار ، يا بطل الإسرائيليات ! لقد غَشَشْتَ المسلمين ، وحاولت أن تُفسد عليهم دينهم ، وخُدِع الكثيرون بمظهرك التقىّ ، وأنت اليهودىّ المنافق الكذّاب !

إن كعب الأحبار ، ووهب بن منبّه ، من مَسْلَمَة بنى إسرائيل ، قد بثّا فى تضاعيف الأحاديث النبوية ما لا يحصَى من الإسرائيليات والخرافات التى لها أصل ، أو شبه أصل ، فى معتقدات اليهود ؛ وقد غشّا المسلمين بمفترياتها . والمرجّح أن الروايات والأحاديث التى لا سَنَدَ

(١) الكسوة : قرية . هى أول منزل تنزله القوافل إذا خرجت من دمشق إلى مصر .

(٢) الطور فى سيناء ، والريان فى الحجاز !

لها فى القرآن الكريم ترجع إليها

ولا شكّ أن الصحابة والتابعين – رضوان الله عليهم – لم يكن بعضهم يروى عن بعض ، ولم يكونوا يسندون نقلهم وروايتهم ، وإنما يتذاكرون الأحاديث فيما بينهم ، من غير إسناد غالباً . وهذا أبو هريرة ، أكثر الناقلين عن رسول الله – ﷺ – يروى أكثر أحاديثه بالعنعنة[1] ، أو بقوله : قال رسول الله – ﷺ – وقلّما يقول : سمعت رسول الله يقول . وقد روَى أبو هريرة عن كعب الأحبار ؛ ولهذا جَزَمَ بعض المحدّثين بأن موقوفات الصحابة التى لا مجال للاجتهاد فيها ليست لها قوة المرفوعات ، إلا إذا طابقت القرآن ، وبعدت عن الإسرائيليات . . .

وفى العصر العباسى اعترف كثير من الزنادقة بأنهم دَسُّوا فى الدين آلاف الأحاديث . وقيل إن حمّاد عَجْرَد قال عند احتضاره : لقد دسستُ فى دينكم أكثر من خمسة آلاف حديث !

ابن صَيَّاد :

روَوْا عن ابن عمر – رضى الله عنهما – أنه قال : انطلق عمر مع النبيّ – ﷺ – فى رهط ، قِبَلَ ابن صيّاد ، حتى وجدوه مع الصبيان عند أُطُم بنى مَغالة ، وقد قارب ابن صيّاد الحُلُم ، فلم يشعر حتى ضرب النبيّ – عليه الصلاة والسلام – بيده على كتفه ، وقال له : أتشهد أنى

(١) عن فلان ، عن فلان . عن فلان . . .

رسول الله ؟ فنظر إليه ابن صيّاد ، وقال : أشهد أنك رسول الأميّين ، فهل تشهد أنت أنى رسول الله ؟ فرفض النبىّ ، وقال : آمنت بالله ورسله . . . وسأل النبىّ ابن صيّاد : ماذا ترى ؟ قال ابن صيّاد : يأتينى صادق وكاذب . فقال النبىّ — ﷺ : خُلِط عليك الأمر . ثم قال له النبىّ : إنى قد خبأت لك خَبْئاً . فقال ابن صيّاد : هو الدُّخُّ . وكان النبىّ — عليه الصلاة والسلام — خَبَأ قوله تعالى : «يَوْمَ تَأْتِى السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ»[1] ، فقالَ : اخسأْ ، فلن تَعْدُوَ قَدْرك . فقال عمر : دعنى ، يا رسول الله ، أضرب عنقه ، فقال له النبىّ — ﷺ : إن يَكُنْه فلن تُسلَّط عليه ، وإن لم يكنه فلا خير لك فى قتله !

ونسبوا إلى ابن عمر أيضاً أنه قال : انطلق رسول الله — عليه الصلاة والسلام — وأُبَىّ بن كعب إلى النخل التى فيها ابن صيّاد ، وهو يختال ليسمع من ابن صيّاد شيئاً ، دون أن يراه ابن صيّاد ، فرآه النبىّ — ﷺ — وهو مضطجع فى قطيفة . . . ورأتْ أمُّ ابن صيّاد رسول الله ، وهو يتّقى بجذوع النخل ، فقالت لابنها : يا صاف ، يا صاف[2] . . . هذا محمد ، هذا محمد ! فثار ابن صياد . فقال النبىّ — ﷺ : لو تَرَكَتْه لَبَيَّن !

إن كلّ كلمة فى هذين الحديثيْن المنسوبين إلى ابن عمر — رضى الله

---

(١) سورة الدخان : ١٠

(٢) صاف : أسم ابن صياد

عنهما – تنطق بأنهما موضوعان . . . فكيف يهتمّ النبىّ – عليه الصلاة والسلام – بابن صيّاد ، فينطلق فى رهط من صحابته إليه ، ليدعوه إلى الإسلام ، وهو بعدُ لم يبلغ الحُلُم ؟ ! . . . إن النبىّ لم ينطلق هذه الانطلاقة لدعوة الرجال السادة ، ولقد كان فى مكة محتاجاً إلى النصير ، فلم يذهب إلى أحد فى بيته يدعوه إلى الإسلام ؛ فكيف يفعل هذا وهو فى المدينة ، بين المهاجرين والأنصار ، ويذهب فى وفد من الصحابة لدعوة صبىّ لم يبلغ الحلم ؟ ! . . .

وكيف يكون صحيحاً حديثٌ يَنْسِب إلى رسول الله – ﷺ – أنه «يختال» ليسمع من إبن صيّاد ، وأنه «يتّقى بجذوع النخل» ، و«يخبّأ له خَبْأ» ؟ ؟ !

وإذا كان لابن صيّاد ذلك الخطر فلِمَ لم ينبّه الوحىُ النبىَّ إليه ، كما نبّهه إلى المنافقين ، وذكر له أسماءهم ؟ !

ثم إن ابن صيّاد يعرف النبىّ ، فلا تأخذه مهابته ، وهو الذى كانت تضطرب لروعته وهيبته قلوب العظماء ، فيردّ – وهو صبىّ – على سؤال النبىّ فى غطرسة وكبرياء : أشهد أنك رسول الأميين !

وعاد النبي يسأل ابن صياد ، وكأنه أكبره ، فأراد اختباره ، وأخبأ له خبئًا ، على عادة الجاهلية التى جاء لحربها والقضاء عليها . ويجيب ابن صيّاد بما هو قريب من الصواب ، فالفرق بين الدُّخّ والدّخان يَعْدِلُ الفرق بين صِبا ابن صيّاد ورجولته !

ولم يعلم النبىّ الذى يوحَى إليه حقيقةَ ابن صيّاد ، أهو الدجّال أم غيره ؟ لكنّ عمر اعتقد أنه الدجّال فأراد قتله ، فمنعه النبىّ بقوله : إن يكنه فلن تسلَّط عليه ، وإن لم يكنه فلا خير لك فى قتله ! وهذا يعنى أن خروج الدجّال كان متوقَّعاً فى عهد النبىّ ، أو بعده بقليل !

ورَوَوْا أن عمر – رضى الله عنه – حلف أمام الرسول – ﷺ – على أن ابن صيّاد هو الدجّال ، فلم ينكر النبي عليه حلفه . وليس عدم إنكاره دليلاً على أن ابن صيّاد هو الدجّال ، كما فهم جابر بن عبد الله ، وصار يحلف على أن ابن صيّاد هو الدجّال ، مستنداً إلى حلف عمر ؛ فما أكثر ما كان يسمع النبىّ ، ويصدق ما يسمع ، حتى ينبئه مولاه ! فقد صدّق الرسول قول تميم الدارىّ عن الجَسّاسة[1] ، وتردّد فى حديث الإفك على السيدة عائشة ، وضاق به صدره ، حتى نزلت آيات البراءة المكذّبة للمفترين ، فى سورة النور . . .

فمثل هذا التصديق لا يطعن فى عِصْمَة النبىّ : فالعِصْمة لا يدخل فيها هذا ، إذ المُجْمَع عليه أن العصمة فى التبليغ عن الله تعالى ؛ والرسل معصومون فيما يؤدّونه عن الله ، عزّ وجلّ ، وليسوا بمعصومين فى غير ذلك . وقول الرسول بظنّه ورأيه لا يدخل فى باب العصمة ، كقوله

---

(١) زعموا أن الجسّاسة دابّة فى جزائر البحر تجسّ الأخبار ، وتأتى بها الدجّال . وفى حديث تميم الدارىّ : أنا الجساسة ، يعنى الدابّة التى رآها فى جزيرة البحر ، وإنما سميت بذلك لأنها تجسّ الأخبار للدجّال !

فى مسألة تلقيح النخل : إنما ظننت ظنًّا ، فلا تؤاخذونى بالظنّ ، ولكن إذا حدّثتكم عن الله شيئًا فخذوه . وفى حديث آخر : إنما أنا بشر مثلكم يوحَىٰ إلىّ ، فإذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوه ، وإذا أمرتكم بشيء من رأيى فإنما أنا بشر. وهذان الحديثان رواهما مسلم فى صحيحه .

وقد وردت أحاديث كثيرة فى ابن صيّاد ، واحتمال أن يكون هو الدجّال . والحقّ أن قصّة ابن صيّاد مشكلة وأمره مشتبه ، وقد أهمل التاريخ أن يذكر لنا شيئاً عن نهايته ، كما ذكر– مثلا – عن مسيلمة الكذّاب .

والأحاديث فى ذلك تدلّ على أنه لم يُوحَ إلى النبىّ أنه الدجّال ، وإنما كشف الله– عزّ وجلّ– لرسوله بعض ما يحدث من فِتَن فى آخر الزمان كشفاً مجملا غير مفصّل ، وأن من هذه الفِتَن ظهور دجّالين يأتون بخوارق وغرائب تفتن الناس ، وكان فى ابن صيّاد بعض صفات تُوهِم أنه الدجّال المنتظَر ، فذكر النبىّ – ﷺ – ما كُشِف له بدون وحى ، فتناقله الرواة بالمعنى ، فأخطأ منهم كثيرون . والذين كانوا يبثّون الإسرائيليات تعمّدوا المبالغة والمغالاة ، فكانت هذه الأحاديث الكثيرة البعيدة عن بلاغة الرسول ، وكان هذ التضارب فى الروايات ، وهذا التناقض الصارخ فى التفاصيل ، وفى الزمان والمكان . ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

إن كلّ رسول كان يخوّف قومه ، وينذرهم بقرب الساعة . وكان

الرسول الكريم يتوقّع ظهور أشراط الساعة فى زمنه ، أو فيما بعده بقليل ، كغيره من الرسل ، ولهذا جوّز ظهور الدجّال المنتظَر فى زمنه .

قال ابن الجوزىّ : كان النبىّ – عليه الصلاة والسلام – يتكلّم بأشياء على سبيل القياس ، وهو دليل معمول به ، فكأنه لمّا نزلت عليه الآيات فى قُرب الساعة ، كقوله تعالى : « أَتَى أَمْرُ اللهِ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ »[1] ، وقوله عزّ وجلّ : « وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَب »[2] ، حمل ذلك على أنها لا تزيد على مضىّ قرن واحد ، ومن ثم قال فى الدجّال : إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه . فجوّز خروج الدجّال فى حياته . . .

ثم إن ما ذُكِر فى قصة الدجّال من خوارق يفوق أعظم الآيات والمعجزات التى أيّد الله بها رُسُلَهُ أولى العزم . والله تعالى قد أيّد رس بالآيات لهداية الناس ، فهل يعقل أن يأتى الدجّال بخوارق أعظم من معجزات الأنبياء ، للفتنة والضلال ؟ ! . . . إن هذا يتعارض ورحمة الله . وإن هذه الخوارق مخالفة لسنّة الله فى خلقه ، « وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً »[3] . . .

ثم إن بعض أحاديث الدجّال يخالف بعض القطعيات الأخرى ، ويتعارض معها تعارضاً شديداً ، فبعضها يقول إن الرسول – ﷺ –

---

(١) سورة النحل : ١ (٢) سورة النحل : ٧٧ .

(٣) سورة الأحزاب : ٦٢ .

كان يرى أن من المحتمل ظهور الدجّال فى زمنه ، وأنه سيكون حجيجه ، ويكفى المسلمين شرّه ، وبعضها يصرّح بأنه يخرج بعد أن يفتح المسلمون بلاد الروم والقسطنطينية ، وبعضها كان يشكّ فى أن الدّجال هو ابن صيّاد ، أحد يهود المدينة ، ومنها وَصْف الدجّال بصفات لا تنطبق على ابن صيّاد ، كما قال ابن صيّاد نفسه لأبى سعيد الخُدْرىّ :

روَى مسلم عن أبى سعيد الخدرى أنه قال : صحبت ابن صيّاد إلى مكة ، فقال لى : أما لقد لَقِيتُ من الناس كثيراً . . . يزعمون أنى الدجّال . . . أما سمعت رسول الله يقول : إنه لا يولد له ؟ قلت : بلى . قال : فقد ولد لى ولد . أوَليس سمعتَ رسول الله يقول : الدجّال لا يدخل المدينة ولا مكة ؟ قلت : بلى . قال : فقد ولدت بالمدينة ، وهذا أنا ذاهب إلى مكة . ثم قال : أما والله إنى لأعلم مولده ومكانه وأين هو؟ قال الخُدْرىّ : فلبسنى– أى خُلِط علىّ أمره !

ولعل من الطريف أن أختم الحديث عن ابن صيّاد بما رواه مسلم عن نافع ، قال : لقىَ ابنُ عمر ابنَ صيّاد فى بعض طرق المدينة ، فقال له قولا أغضبه ، فانتفخ حتى ملأ السكّة[1] ، فدخل ابن عُمر على حفصة ، وكان قد بلغها ما حدث ، فقالت له : رحمك الله ! ما أردت من ابن صيّاد ؟ أما علمت أن رسول الله – ﷺ – قال : إنه

(١) السكة : الطريق المصطفة بالنخيل .

يخرج من غضبة يغضبها ؟ !

ومن الأحاديث الدجّالية أن معه جبلاً أو جبالاً من خبز ، ونهراً أو أنهاراً من ماء وعسل ! ومنها ما ينفى ذلك ، فقد قال المغيرة بن شعبة : ما سأل أحد النبى – ﷺ – عن الدجّال ما سألته ، وإنه قال لى : ما يضرّك منه ؟ قلت : لأنهم يقولون إن معه جبلاً من خبز ونهراً من عسل ! فقال ، عليه الصلاة والسلام : هو أهون على الله من ذلك !

تأمل قول المغيرة : إنهم يقولون . . . ولم يقل : إنك قلت !

* * *

أما مكان خروج الدجّال ففيه من التعارض كثير كثير . . .

ففى رواية أنه يخرج من قبل المشرق ، على الإبهام . . .

وفى رواية أنه يخرج من خلّة بين الشام والعراق . . .

وفى رواية أنه يخرج من أصبهان . . .

وفى رواية أنه محبوس بدير ، أو بقصر ، بجزيرة فى بحر الشام – البحر المتوسط – وهو فى الشمال . . .

وفى رواية أنه محبوس فى جزيرة ببحر اليمن ، وهو فى الجنوب ، وأنه يخرج منها !

وهذه الروايات المتعارضة تكلف المتكلّفون فى شرحها وتأويلها ، فجاءوا بكلام متكلّف ردّه المحققون .

إن الشكّ ليسيطر علىّ ، وإن الحيرة لتتملّكنى ، وأنا أقرأ الأحاديث

التى ذكرت الدجال . فإذا ما فكرت فيها قادنى التفكير إلى أكثر من الشكّ والحيرة ، فكلما أمعنت الفكر فى هذه الأحاديث ازددت إنكاراً لها وإيماناً بوضعها ، وبأنها من دسائس المجوس ومكايد اليهود . . .

إن سُنّة الله فى خلقه أن يحوطهم بضروب الحبّ والرعاية والعناية ، وأنه أحنّ عليهم من الأم على وليدها ، وأنه يرسل إليهم رسله كلّما ضلّوا سواء السبيل ؛ فكيف تتبدّل سنّته وتتغيّر ، وكيف يؤيد بمعجزاته هذا الأعور الكذاب ، الذى لا يدّعى التقوى والصلاح ، أو يدّعى النبوة والرسالة ، وإنما يدّعى الألوهية ، وينازع الربّ عظمته وجلاله ، ويشاركه فيما اختص به ، فيميت ويحيى ، وينزل الغيث من السماء ، ويقول : أنا ربّكم الأعلى ، مَن أطاعنى أدخلته جنّتى ، ومَن عصانى فجزاؤه جهنّم ، وبئس القرار ؟ !

أليس تبديلاً لسنّة الله أن يَفْتِن العالم كلّه بهذا الأعور الدجّال ، ويؤيّده بمعجزات تفوق ما أيّد به رسله الهُداة المبشرين المنذرين ؟ . . . أوليس تبديلاً لسنة الله أن يَقْدِر هذا الدجّال على أن يحمل الجنّة والنار على يديه ، ويطوف بهما الدنيا من أقصاها إلى أقصاها ؟ . . . أوليس تبديلاً لسنّة الله أن يأتى هذا الدجّال بما لم يقدر عليه أحد من الرسل الكرام أولى العزم ؟ . . . أوليس تبديلاً لسنّة الله أن يضلّ العالم – بعد أن وصل إلى ما وصل إليه من رقىّ فكرىّ ومادىّ – فيؤمن بربوبية دجّال أعور ؟ . . . أم يخلق الله – عزّ وجلّ – ناساً لهم عقول غير عقولنا ،

فيؤمنون بهذا الدجّال ربًّا وإلهاً معبوداً ؟ ! . . . غفرانَك اللّهمّ !

ثمّ ما مصير هؤلاء الذين يدخلهم الدجّال جنّته وناره ؟ أيظلّون فيهما أبداً يتمتّع مَن فى الجنّة بما تشتهيه الأنفس وتلذّ الأعين ، ويَصْلَى مَن فى الجحيم ناراً ذات لهب ، وكلّما ذابت جلودهم بدّلهم جلوداً غيرها ؟ أم يخرجون ؟ ومتى يخرجون ؟ وكيف يخرجون ؟ وما فائدة دخولهم ؟ . . .

* * *

لو صحّت الأحاديث عن الدجّال لكان خطره العظيم مُسَوِّغاً لذكره فى القرآن بكلمة إنذار أو تخويف . قال الله تعالى : «مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ» [1] ، ولكنّ القرآن خلا من كلّ ما حاك الوضّاعون حول الدجّال ، ولم يُشِرْ قطّ إلى هذا الزلزال البشرىّ . . .

لقد تحدّث القرآن عن الأنبياء والمرسلين ، فتحدّث – مثلاً – عن نوح وإبراهيم وإسماعيل وإسحٰق ويعقوب ويوسف وداود وسليمان وموسى وعيسى ومحمد . . . وتحدّث عن العُصاة الكافرين الجبّارين ، فتحدث – مثلا – عن عاد وثمود وقارون وامرأة لوط ، وذكر بعض أقوال كفار قريش وأعمالهم ضدّ الرسول ، ﷺ ، والدجّال لا يقلّ عنهم شأناً وخطراً ، فكيف أهمله القرآن الكريم ؟ ! . . . إن القرآن الذى وسع حوالى ثمانين ألف كلمة ضَنّ بكلمة واحدة عن هذا الأعور الدجّال ، فلا حَرَجَ علينا إذا حسبناه خرافة !

---

(١) سورة الأنعام : ٣٨

إن الدجّالين كثيرون ، ولا يكاد زمان أو مكان يخلو من ظهور دجّال كذّاب أو أكثر. وللفكرة أساس فى اليهودية والمسيحية ، ولكن بغير مبالغة الوضّاعين ومغالاة الدسّاسين ، فالدجّال فيهما رمز لانتصار قُوَى الشرّ على قوى الخير : فإنه قد دخل العالم مضلّون كثيرون لا يعترفون بيسوع المسيح ، فمن كان كذلك فهو المضل المسيح الدجال [١] ، ويأيها الأولاد ، هذه هى الساعة الأخيرة ، وكما أنكم سمعتم أن المسيح الدجّال يأتى يوجد الآن مسحاء دجّالون كثيرون ، فمن هذا نعلم أن هذه الساعة هى الساعة الأخيرة [٢] . . .

ومن بواعث السخرية أن نقرأ فى «لسان العرب» : بيسان موضع بالأردن فيه نخل لا يثمر إلى خروج الدّجال !

وقد سئل الإمام الشيخ محمد عبده عن المسيخ الدجّال ، وعن نزول المسيح عيسى بن مريم ، وقتله الدجّال ، فقال : إن الدجّال رمزٌ للخرافات والجدل والقبائح التى تزول بتقرير الشريعة على وجهها ، والأخذ بأسرارها وحكمها . وإن القرآن أعظم هادٍ إلى هذه الحكم والأسرار .

* * *

مما تقدّم يتحقّق أن الأخبار المرويّة عن المسيخ الدجال أحاديث موضوعة وأقوال مدسوسة ، وأن الدجّال شخصية وهمية ، وأن رسول

---

(١) رسالة يوحنا الثانية : ٨

(٢) رسالة يوحنا الأولى ٢ : ١٨

الله - ﷺ - براء من نسبة هذه الأحاديث إليه ، فإنما هى فتنة من فِتَن الوضّاعين ، ومكيدة من مكايد مَسْلَمَة بنى إسرائيل .

أنا أنكر أمر الدجّال من أوله إلى آخره ، فلا أومن بظهوره ، ولا أتوقّع خروجه ، ولا أنتظر مجيئه ، وأعتقد أنه خرافة من خرافات السابقين . . . وحَسْبِى أن القرآن الكريم ليس فيه كلمة واحدة ترمز إليه أو تدلّ عليه . . . أما كان يستحقّ هذا الدجّال الذى يُحدث فى الدنيا زلزالاً بشريًّا عظيمًا ، ويبدّل سنة الله تبديلا ، ويأتى بخوارق لا يقبلها العقل ، فيميت ويحيى ، ويأمر البحر أن ييْبَس فييبس ، ويأمر الصحراء أن تصير جنات تجرى من تحتها الأنهار فتصير ، ويحمل فى إحدى يديه جنّة ، ويحمل فى اليد الأخرى ناراً ، ويطوف بهما أرجاء الدنيا ، وناره جنّة ، وجنّته نار - أما كان يستحقّ هذا الدجّال أن يذكره التنزيل العزيز الذى ذكر أبا لهب وامرأته حمالة الحطب[1] ؟ !

وقانا الله شرّ الفِتَن ، وهدانا الصراط المستقيم .

---

(١) سورة المسد .

المسيـــح

لم يفصّل القرآن الكريم سيرة رسول من الرسل كما فصّل حياة سيّدنا عيسى – عليه الصلاة والسلام ، فقد ذكره فى عدّة سور ، وذكر تاريخه منذ قالت جدّته : « رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّراً . . . » إلى أن رفعه الله إليه . . .

(اقرأ سور : آل عمران والنساء والمائدة ومريم والزخرف . . .) .

وإن هذا الطول فى تفصيل مولد المسيح ورسالته ومعجزاته ما كان ليضيق بالإشارة إلى رجعته إلى الدنيا . . . لكنّ الأحاديث الدجّالية المدسوسة ذكرت أن المسيح ينزل ويقتل الدجّال . وقد ذكرنا فيما مضى كثيراً من هذه الأحاديث ، ونضيف هنا إلى ما سبق ذكره ما رواه أبو هريرة قال : قال رسول الله ، ﷺ : لا تقوم الساعة حتى ينزل الروم بالأعماق ، أو بدابق ، فيخرج إليهم جيش من المدينة من خيار أهل الأرض يومئذ ، فإذا تصافّوا قالت الروم : خلّوا بيننا وبين الذين سُبّوا منا ، فيقول المسلمون : لا ، والله . لا نُخلِى بينكم وبين إخواننا ، فيقاتلونهم ، فيهزَم ثلث لا يتوب الله عليهم أبداً ، ويُقتل ثلث هم أفضل الشهداء عند الله ، ويفتتح الثلث لا يُفتنون أبدًا ، فيفتحون القسطنطينية ، فبينا هم يقتسمون الغنائم ، قد علّقوا سيوفهم بأشجار

الزيتون ، إذ صاح فيهم الشيطان : أن المسيح قد خلَفَكم فى أهلكم ، فيخرجون ، وذلك باطل ، فإذا جاءوا الشام خرج ، فبينما هم يعدّون للقتال ، ويسوّون الصفوف ، إذ أقيمت الصلاة ، فينزل عيسى ، فيؤمّهم ، فإذا رآه عدوّ الله الدجّال ذاب كما يذوب الملح فى الماء ، فلو تركه لانذاب ، ولكن يقتله الله بيده ، فيريهم دمه فى حربته !

تأمل هذا الحديث تجده يذكر أن دولة الروم ستبقى ذات سطوة وسلطان وقوة ، تكافح المسلمين ، ويجاهدونها ، وأن القسطنطينية ستبقى معقل الرومان ، ومطمح أنظار المسلمين فى الغزو والجهاد ، وأن الناس سيبقون على ما كانوا عليه عند ظهور الإسلام ، فلا تظهر الاختراعات الحديثة من بنادق ومسدسات ، ومدافع ودبابات ، وطائرات وطوربيدات ، وغازات وصواريخ . . . وأن السيف والحربة سيبقى لهما خطرهما فى الحروب . ولهذا نرى أن هذا الحديث موضوع ، لأنه من المحال أن رسول الله – ﷺ – الذى يوحَى إليه يتحدّث عن المستقبل بأشياء غير صحيحة !

وعن أبى هريرة أيضاً أن النبىّ – عليه الصلاة والسلام – قال : لاتزال طائفة من أمتى يقاتلون على الحقّ ظاهرين إلى اليوم القيامة . قال : فينزل عيسى بن مريم ، عليه الصلاة والسلام – فيقول أميرهم : تعالَ ، صلِّ بنا . فيقول : لا . إن بعضكم على بعض أمراء ، تَكْرِمَةَ الله هذه الأمّة !

وهذا الحديث قد أراد واضعه أن يتدارك ما يُفهم من نبوّة المسيح . ومعارضة ذلك لكون محمد خاتم النبيّين ، فصوّر عيسى تابعاً مؤتمًّا لا مأموماً متبوعاً ، فجعله يَتَنَحَّى عن الإمامة فى الصلاة !

وعن أبى هريرة أيضاً قال : قال رسول الله ، ﷺ : يخرج الدجّال فى أمتى ، فيمكث أربعين ، لا أدرى أربعين يوماً ، أو أربعين شهراً ، أو أربعين عاماً ، فيبعث الله عيسى بن مريم كأنه عروة بن مسعود ، فيطلبه فيهلكه ، ثم يمكث الناس سبع سنين ، ليس بين اثنين عداوة ، ثم يرسل الله ريحاً باردة من قبل الشام ، فلا يبقى على وجه الأرض أحد فى قلبه مثقال ذَرَّة من خير أو إيمان إلا قبضته ، حتى لو أن أحدكم دخل فى كَبِد جَبَل لدخلته عليه حتى تقبضه !

يذكر هذا الحديث أن الناس يمكثون ، بعد أن يُقتل الدجّال ، سبع سنين ليس بين اثنين عداوة ، ثم يرسل الله ريحاً تقتل كل مَن فى قلبه مثقال ذرّة من خير أو إيمان . . . تصوَّرْ ! . . . إن محمداً – ﷺ – يظلّ ثلاثاً وعشرين سنة يدعو إلى التوحيد ، ثم يموت دون أن تُطَهَّر جزيرة العرب من المشركين . . . أما المسيح فبضربة واحدة من حربته يقتل الدجّال ، ويقضى على فتنته العمياء ، وينشر السلام ، ويعيش العالم سبع سنين ليس بين اثنين عداوة ! . . . ثم يرتدّ العالم إلى شرّ ممّا كان عليه ، فلا يبقى على وجه الأرض أحد فى قلبه مثقال ذرّة من خير أو إيمان !

لماذا هذا كلّه ؟ وما الحكمة فيه ؟ . . . إنه لأمر يدعو إلى العجب والشك والإنكار !

وعن أبي هريرة أيضاً – ويجب ألا ننسى أن أبا هريرة روى كثيراً عن كعب الأحبار ، بطل الإسرائيليات – قال : قال رسول الله ، ﷺ : والذى نفسى بيده ليوشكنّ أن ينزل فيكم ابن مريم حَكَماً عدلاً ، فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد ، وحتى تكون السجدة الواحدة خيراً من الدنيا وما فيها . ثم يقول أبو هريرة : واقرءوا إن شئتم : « وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً »[1] .

وقوله تعالى : « إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ »[2] : اختلف فيه المفسرون ، فمنهم من قال إن الله توفّاه بضع ساعات ، وأحياه ورفعه حيًّا ، ومنهم من قال إنه ينزل إلى الأرض ، ويمكث فيها أربعين سنة ، فيوافق خروج الدجّال فيقتله ، ثم يموت عيسى ثانية ، ليدفن فى الأرض ، إذ ليس لمخلوق من التراب أن يموت فى غيرها !

والمسيحيّون يؤمنون أن المسيح صلب ، ومات على الصليب ، ودفن ، وبعد يومين توجّهت بعض النسوة إلى القبر ، فَوَجَدْنَه مفتوحاً ، وأخبرهن مَلَك أن المسيح قد قام من بين الأموات . وبعد قليل رأيْنَه

---

(١) سورة النساء : ١٥٩ .

(٢) سورة آل عمران : ٥٥ .

وكلّمنه ، كما رآه كثير من تلاميذه[١] . وتقف الأناجيل عند هذا الحد ، أما سفر أعمال الرسل ورسائل بولس الرسول فتذكر أن يسوع ظهر مراراً لتلاميذه بعد قيامته ، وأنه صعد إلى السماء بعد أربعين يوماً . . . وأنه سيعود فى آخر الزمان للدينونة الكبرى .

أما المسلمون فينكرون صلب المسيح وموته ، ويؤمنون أن الله رفعه إليه ، وأنه سينزل قبل القيامة . . .

إن الأحاديث التى ذكرت رجعة المسيح إلى الدنيا تذكر أن سبب هذا النزول هو أن يقتل الدجّال . . .

وقد قلنا من قبل إن الدجّال خرافة ، وإذًا تكون النتيجة المترتّبة على مقدمة باطلة ، وهى ظهور الدجال ، نتيجة باطلة أيضاً . . .

وإن عدم ذكر نزول المسيح فى القرآن الكريم ، مع وجود المناسبات القويّة فى عدّة سور ، دليل أى دليل على عدم نزول المسيح إلى الأرض . . .

إن الآية الوحيدة التى يمكن أن يكون المفسرون قد فهموا منها أن المسيح راجع إلى الأرض هى قوله تعالى : « وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ »[٢] ، فقد فسّروه بأنه شرَط من أشراطها تُعلَم به . وقرأ ابن عباس : « وَإِنَّهُ

(١) إنجيل متى : ٢٨ ، ومرقس : ١٦ ، ولوقا : ٢٤ ، ويوحنا : ٢٠ .

(٢) سورة الزخرف : ٦١ .

لَعَلمٌ لِلسَّاعَةِ » . والآية لا تدلّ على رجعة المسيح ، فكلّ رسول هو علم للساعة وبشير ونذير . . .

ثم إن المسيح نبىّ مرسل ، وهذا الوصف ثابت له ، فإذا عاد إلى الدنيا فهل يعمل بشريعته ؟ أو يعمل بشريعة محمد ؟ أو توحى إليه شريعة جديدة ؟ وكيف نوفّق حينئذ بين هذا وبين قول الله ، عزّ وجلّ : « مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلٰكِنْ رَسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا »(١) . ومن يكون خاتم النبيّين فى هذه الحالة : محمد أم عيسى ؟

قال بعض المتكلمين : إنه لا يمنع نزوله من السماء إلى الأرض إلا أنه إنما ينزل عند ارتفاع التكاليف ، أو بحيث لا يُعرَف ، إذ لو نزل مع بقاء التكاليف ، أو على وجه يُعرَف أنه عيسى – عليه الصلاة والسلام – لكان إمّا أن يكون نبيًّا ، ولا نبىَّ بعد محمد ، ﷺ ، أو غير نبى ، وذلك غير جائز على الأنبياء . . . قال الرازى : وهذا الإشكال عندى ضعيف ، لأن انتهاء الأنبياء إلى مبعث محمّد – عليه الصلاة والسلام – فعند مبعثه انتهت تلك المدّة ، فلا يبعد أن يصير بعد نزوله تابعاً لمحمّد .

و « اللهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ »(٢) .

---

(١) سورة الأحزاب : ٤٠ .

(٢) سورة الشورى : ١٥ .

المهـــدى

المهدى – فى عقيدة مَن ينتظرونه – رجل من نسل فاطمة الزهراء ، رضِيَ الله عنها ، يأتى فى آخر الزمان ، يملأ الأرض عدلاً كما مُلِئت جَوْراً !

عن حُذَيْفة قال : إن رسول الله – ﷺ – ذكر فتنة تكون بين أهل المشرق والمغرب ، فبينما هم كذلك إذ خرج عليهم السفيانى من الوادى اليابس فى فورة ذلك ، حتى ينزل دمشق ، فيبعث جيشاً إلى المشرق ، وآخر إلى المغرب ، فينزل جيش المشرق بأرض بابل ، فى المدينة الملعونة والبقعة الخبيثة ، يعنى مدينة بغداد ، فيقتلون أكثر من ثلاثة آلاف ، ويغتصبون أكثر من مائة ألف امرأة ! ويقتلون بها أكثر من ثلثمائة من ولد العباس ، ثم يخرجون متوجّهين إلى الشام ، فتخرج راية المهدى من الكوفة ، فيلحق ذلك الجيش منها على ليلتين ، فيقتلونهم ، ثم لا يفلت منهم مخبر ، ويستنقذون ما فى أيديهم من السَّبْى والغنائم . . . ويحلّ الجيش الآخر بالمدينة ، فينهبونها ثلاثة أيام ولياليها ، ثم يخرجون متوجّهين إلى مكة ، حتى إذا كانوا بالبيداء بعث الله جبريل ، عليه السلام ، فيضربهم برجله ضربة يخسف بهم الأرض ، وذلك قوله تعالى : « وَلَوْ

تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلاَ فَوْتَ وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ» [1] . فلا يبقى إلا رجلان ، أحدهما بشير ، والآخر نذير ! ! !

وكفانا دليلاً على وضع هذا الحديث وكذبه أنه يذكر مدينة بغداد . فبغداد لم تكن فى عهد الرسول ، ﷺ ، ولا فى عهد حُذَيْفة الذى نسبوا إليه رواية الحديث ، وإنما أسّسها المنصور الخليفة العباسى سنة ١٤٥ هـ (٧٦٢ م) .

ونسبوا إلى النبىّ ، ﷺ ، أنه قال : ستُفتح بعدى جزيرة تُسَمَّى الأندلس ، فيتغلّب عليهم أهل الكفر ، فيأخذون أموالهم وأكثر بلادهم ، ويكون فى المغرب هرج وخوف ، ويستولى عليهم الجوع والغلاء ، وتكثر الفتنة ، ويقتل الناس بعضهم بعضاً ، فعند ذلك يخرج رجل من المغرب الأقصى من ولد فاطمة ، وهو المهدىّ القائم فى آخر الزمان ، وهو أول أشراط الساعة ! ! !

قال القرطبي : قد شاهدنا جميع هذه الأمور ، وعاينّاها فى بلادنا ، إلا خروج المهدىّ !

ونسبوا أيضاً إلى رسول الله ، ﷺ ، أنه قال : إذا أقبلت الرايات السُّود من قِبل المشرق فإنه خليفة الله المهدىّ ، فبايعوه إذا رأيتموه ، ولو حَبْواً على الثلج !

ونسبوا إليه ، عليه الصلاة والسلام ، أنه قال : لو لم يبقَ من الدنيا

---

(١) سورة سبأ : ٥١

إلا يوم واحد لطول الله ذلك اليوم حتى يملك رجل من أهل بيتى الديلم والقسطنطينية !

ونسبوا إليه ، ﷺ ، أنه قال أيضاً : نحن ولد عبد المطّلب سادات أهل الجنّة : أنا وحمزة وعليّ وجعفر والحسن والحسين والمهديّ !

ونسبوا إلى عليّ بن أبي طالب أنه سأل النبي : أمِنّا المهدى أم من غيرنا ، يا رسول الله ؟ فقال : بل منّا . بنا يختم الله كما بنا فتح ، وبنا يُستنقَذون من الشرك ، وبنا يؤلّف بين قلوبهم بعد عداوة بيّنة ، كما بنا ألّف بين قلوبهم بعد عداوة الشرك . قال عليّ : أمؤمنون أم كافرون ؟ قال : مفتون وكافر !

وإذا كنّا قد شككنا فى أحاديث الدجّال ، فإننا ننكر أحاديث المهديّ جميعها ، فليس فى الصحيحين حديث واحد عنه . وإنما روَى هذه الأحاديث رواةٌ نعلم مدى تحقيقهم لما نسبوه إلى رسول الله ، ﷺ ونعرف مبلغ ما امتلأت به كتبهم من الحَشْو والأحاديث المدسوسة . . . وقد تعرّض ابن خلدون فى مقدمته لنقد هؤلاء الرواة ، وقال : إن بعضهم كانوا يروْن السحاب فيقولون : هذا عليّ قد مرّ فى السحاب ! فإذا سمعوا الرعد زعموا أن علـيًّا يسلّم عليهم . فيقولون : عليك السلام ، يا أمير المؤمنين !

ثم قال : « والحق الذى ينبغى أن يتقرّر لديك أنه لا تتمّ دعوة من الدين والملك إلاّ بوجود شوكة عصبيّة تظهره ، وتدافع عنه ، حتى يتم

أمر الله فيه . وعصبيّة الفاطميين . بل قريش أجمع . قد تلاشت من جميع الآفاق . ووجِد أمم آخرون . قد استعلت عصبيّتهم على عصبيّة قريش إلا ما بقِيَ بالحجاز فى مكّة وينبع والمدينة من الطالبيين . من بنى حسن ، وبنى حسين ، وبنى جعفر . فإن صحّ ظهور هذا المهدىّ فلا وجه لظهور دعوته إلا بأن يكون منهم . ويؤلف الله بين قلوبهم فى اتباعه . حتى تتمّ له شوكة . وعصبيّة وافية بإظهار كلمته . وحَمْل الناس عليها . وأمّا على غير هذا الوجه فلا يتمّ ذلك . . . »

وقد مضت قرون بعد ابن خلدون . وتشتّت فى أثنائها بقايا الطالبيين . وإذاً فلن يكون هناك مهدىّ . وهذا ما نؤمن به .

ويؤيد إنكارَنا ظهورَ المهدىّ ضعف أسلوب الأحاديث التى تذكره . ورِكّة تعبيرها . واستخدام القصص وبسط الشرح لإثبات الدعوى . . .

ثم إن من الأحاديث المهدية ما يذكر النشّاب والأقواس والسيوف والرماح ممّا لم يبقَ له أثر إلا فى المتاحف ودور الآثار !

ومن أعجب ما ينسب إلى ابن عباس أنه قال : أصحاب الكهف هم أعوان المهدىّ !

وإذًا فمن حقّنا أن نُنكر المهدىّ المنتظَر . وأن نعتقد أن ظهوره مذهب سياسىّ كُسِى ثوب الدين . يقوم على « إمام مختف » سيظهر ويتولّى أمور الدنيا ، وقد عُنِىَ الزنادقة بنشر هذه الدعوة طمعاً فى سلب

سلطان المسلمين ، وإعادة ملك فارس . . .

ولفكرة المهدىّ أصل فى الزرادشتية ، فقد أخبر زرادشت فى كتابه « زند أفيستا » الذى صنفه ، ثم زعموا أنه أنزل عليه ، قال : سيظهر فى آخر الزمان رجل اسمه « أشيزريكا » . ومعناه العادل العالم بالدين ، وأنه سيظهر فى زمن « أشيزريكا » هذا رجل آخر اسمه « بتياره » ، فيوقع الآفة فى أمر « أشيزريكا » وملكه عشرين سنة . ثم يظهر عليه « أشيزريكا » ويحيى العدل والصلاح فى العالم ، ويقضى على الجور والفساد . ويردّ السنن المحرّفة إلى أصلها ، ويعمّ الأمن والدّعة ، وتسكن الفتن ، وتزول المحن !

ونحن لا نشك فى أن أمثال هذه الأفكار الزرادشتية ، بالإضافة إلى ما فى عقائد اليهود من ظهور « المخلّص » ، هى أساس فكرة الدجّال ، وفكرة المهدىّ فى الإسلام ؛ فقد كان للفرس قبل الإسلام دولة عظيمة ، وحضارة عريقة ، وعقائد مقدّسة ، وكانوا يظنون أنهم وحدهم السادة الأحرار ، وأن غيرهم من الأجناس عبيد ؛ كما يعتقد اليهود أنهم وحدهم « شعب الله المختار » وأن من عداهم أميّون يحلّ لليهود أن يغشّوهم ويسلبوهم ما يستطيعون ، وأن أىّ أذى وشرّ يصنعه اليهودىّ بالأمىّ حلال مباح !

وكان الفرس ينظرون إلى العرب نظرتهم إلى أقل الأمم خطراً . فجاء الإسلام ، وفتح العرب المسلمون بلاد فارس ، وقضوا على دولتهم

المجوسية ، وعلى عقائدهم ، وأذلوا عظمتهم الكاذبة ، ولاسيما فى عصر بنى أميّة الذى كان كلّ شيء فيه عربيًّا ، فبات الفرس محكومين ، بعد أن كانوا حُكّاما ، وأُبْعِدوا عن مناصب الدولة ، واستخدمهم العرب فى الحرب مشاة ، حتى إن المختار الثقفىّ لما خرج بالكوفة ، لينتقم لمقتل الحسين بن على – رضى الله عنهما – من قاتليه بنى أميّة ، وحَمَل « الموالى » فى جيشه على الدوابّ ، عاتبه أهل الكوفة ، كما عوتب عمر بن عبد العزيز حينما جعل على وادى القرى والياً من « الموالى » . . بل لقد بلغ هوانُ الفرس فى عهد بنى أمية أن الرجل منهم إذا تزوّج عربية أُكْرِه على طلاقها !

وقد حدث أن افتخر إسماعيل بن يسار بأجداده الفرس ، بين يدى الخليفة الأموى هشام بن عبد الملك ، فأمر به فغطّس فى بركة حتى كاد يغرق . . .

وكان إيثار الأمويين كلَّ ما هو عربىّ سبباً فى كراهية غير العرب حكمَ بَنى أمية ، وداعياً إلى انضمام الفرس وأمثالهم إلى كل خارج على الدولة ، فبثّوا كثيراً من أفكارهم وعقائدهم بين المسلمين فى شكل أحاديث موضوعة حيناً ، وحيناً آخر بتأويل آيات القرآن الكريم بما يوائم أغراضهم . . ومن ثَمَّ عمد الفرس إلى محاولة تقويض مُلك بنى أميّة ، فانضموا إلى الدعوة العباسية وآزروها بألسنتهم وأموالهم وسيوفهم ، فحاربوا تحت لواء بنى العباس ، حتى قامت الدولة العباسية : دولة

عربية فى اسمها ، إسلامية فى دينها ، فارسية فى سياستها . . وقد قيل إن قصر هارون الرشيد كان به ثمانون رئيساً كلهم من الفرس !

ولم يكن اليهود فى الجزيرة العربية بأقل شأناً من الفرس فى محاربة الإسلام والمسلمين ، ولم يكونوا أقل رغبة منهم فى إفساد العقيدة الإسلامية والقضاء على الدعوة والدولة ، فقد كان لليهود سلطان ونفوذ ، فقضى الإسلام على مكانتهم ، فتظاهر كثير منهم بالإسلام ، وأخذوا يكيدون للإسلام والمسلمين . . .

ومن هنا أخذت الأفكار اليهودية تُقْحَم فى الدين الجديد ، فكان أصحابها يلتمسون لتأييد أفكارهم تأويل آيات القرآن الكريم وبعض الأحاديث النبوية ، فإذا أعوزهم الرمز فى القرآن والحديث الصحيح اختلقوا أحاديث كاذبة ، ونسبوها إلى الرسول ، ﷺ . . ومن الأحاديث المدسوسة أحاديث الدجّال والمهدىّ ، ففكرة المهدىّ المنتظَر فكرة فارسية ، أساسها ما جاء فى تعاليم « زرادشت » من أنّ الدنيا تنتهى بعد ثلاثة آلاف سنة ، وأنه يقوم على رأس كل ألفٍ نبىّ من أولاد « زرادشت » ، من نطفته المحفوظة بحراسة الملائكة ! وآخر هؤلاء الثلاثة هو « ساءوشيانت » أى « المهدى المنتظر » ، الذى يظهر قبل النهاية ، فينصر الخير ، وينقل الحياة الدنيا إلى سعادة شاملة !

الخاتمة

وبعد ، فإن الساعة آتية لا ريب فيها . وإنى أعتقد أن أصدق أشراطها هو مبعث محمد بن عبد الله ، عليه الصلاة والسلام ، فمن المبادئ المقرّرة أن الخلود فى الحياة الدنيا محال ، وأن ليس بعد الكمال إلا الزوال ، وقد قال الله — عزّ وجل — فى ختام وحيه إلى نبيه الكريم : « الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً »[1] ، فقد كمل الدين ، وبكماله يكون إكمال الحياة الروحية والحياة البشرية المادية . وإذا تم شىء بدا نقصه . . هذه سنّة الله فى خلقه ، ولهذا نعدّ بعثة النبىّ — عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام — أقوى الدلالات وأهمّ العلامات على قرب الساعة . . .

ومع إيماننا هذا نرفض ما قيل فى تفسير حديث رسول الله — ﷺ : بعثت أنا والساعة كهاتين (وأشار بأصبعيه الوسطى والسبّابة) ، وفسّروا ذلك بأن الباقى من عُمر الدنيا ، منذ مبعثه ، كالفرق بين طول الأصبع الوسطى والسبابة ، وأنه نصف السُّبع ، ونرتضى التفسير القائل إن المراد بهذا الحديث أنه ليس بينه وبين الساعة نبىّ آخر . . .

ونرى أن من أشراط الساعة قوله تعالى : « إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

(١) سورة المائدة : ٣

كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاها حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بالأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ» (يونس : ٢٤).

ولقد أظلنا الآن هذا العصر الذى وصل فيه الإنسان إلى ذروة الحضارة والمدنية ، وكشَفَ من خلق الله ، ومن أسرار الحياة ما لم يكن يخطر ببال . . . فقد أخذت الأرض زخرفها وازّينت ، وظنّ أهلها أنهم قادرون عليها ، بعد أن نَقَل العلم الأصوات والصُّور عبر آلاف الأميال ، وبعد أن فجَّر الذرة ، واستعذب ماء البحر الملح ، ونفذ إلى أقطار السموات . ومشى فوق سطح القمر ، وهو بسبيله إلى غزو غيره من الكواكب . .   والحمد لله بدءاً وختاماً .

الكتاب القادم :

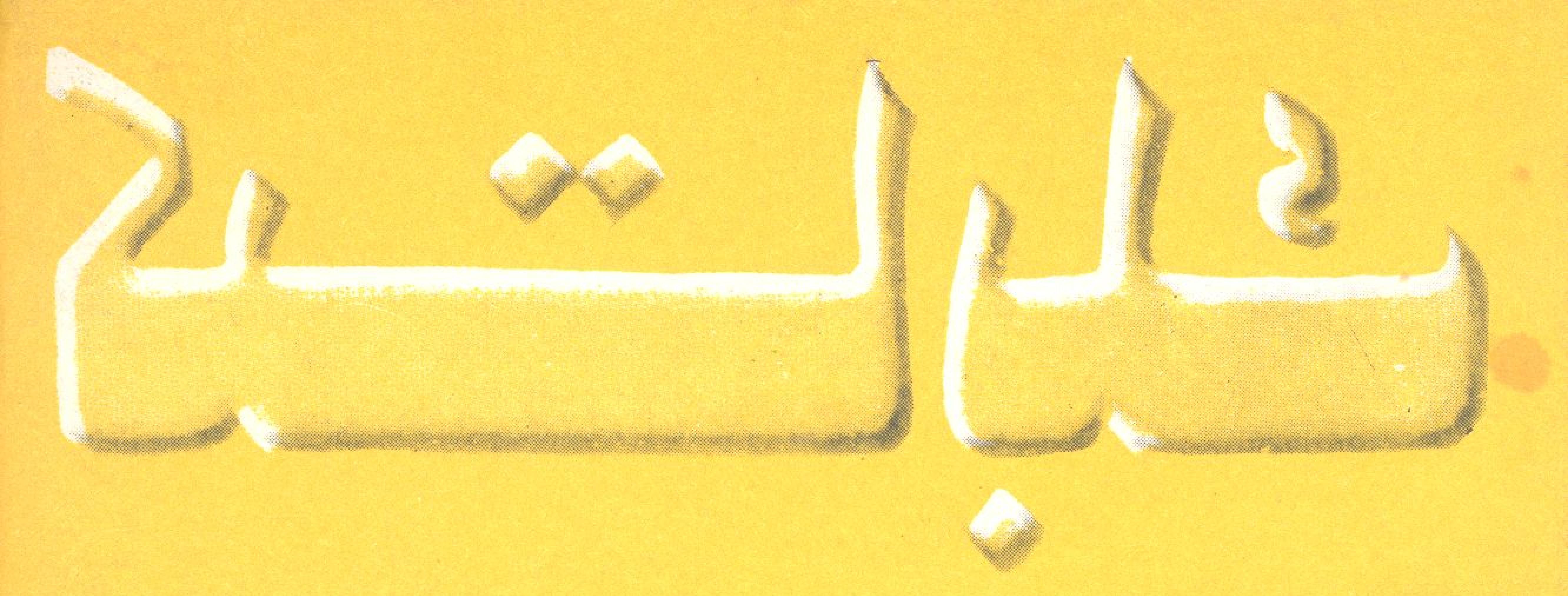
العسكرية الإسلامية

لواء / جمال الدين محفوظ

رقم الإيداع	١٩٧٨/٤٢٥١
الترقيم الدولى	ISBN ٩٧٧ – ٢٤٧ – ٣٩٢ – ٥

١/٧٨/١٧٥

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)



هـذا الكتاب

مناقشة واعية قائمة على العقل والدليل ، لا على الوراثة والتقليد ، يقدم من خلالها المؤلف تلك المعتقدات التى تتصدر وجدان كثير من المؤمنين بالأديان السماوية ، وتنبىء بظهور آيات خاصة وخروج منتظَرين علامة على اقتراب الساعة .

ج ١٠